رغبات مهمشة

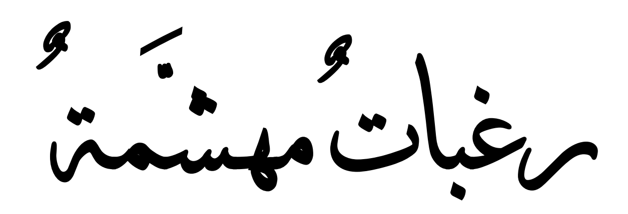
فرنسيس، اخلاص موسى
رغبات مهمشة/ اخلاص موسى فرنسيس .- عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2020
( )ص.
ر.إ. : 1631/ 6/ 2020
الواصفات: / الروايات العربية / / الأدب العربي/ / العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

ISBN: 978-9923-32-067-9



دار يــافــا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – تلفاكس 00962 6 4778770
ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن
E-mail: dar_yafa @yahoo.com

سلسلة إصدارات الكاتبة إخلاص فرنسيس :



مجموعة قصصية



2020

الفهرس

كلمة شكر

"رغبات مهشّمة" هي أول عمل أدبيّ لي في عالم الرواية، وهذا العمل ولد وأبصر النور بعون من أصدقاء مخلصين أحاطوا بي، وساعدوني تشجيعا وتنقيحا، إضافة إلى الاقتراحات الخيرة، والأفكار النيرة التي أغنت الرواية وجمّلتها.

أصدقاء زيّنت لمساتهم سطور الرواية، أخصّ بالذكر صديقي العزيز الشاعر معروف عازار الذي كانت له اليد الطولي من خلال تشجيعه الدائم، وتوجيهه خلال رحلتي الروائية هذه.

شكرا على الوقت الذي صرفه، والجهد الذي بذله، وهو يقرأ ويبدي الرأي السديد، والملاحظات القيمة، وعلى التصدير الجميل الذي خصني به.

أيضا أشكر صديقي الجميل قلبا وقالبا الشاعر والكاتب جميل داري على قضاء الكثير من وقته لقراءة

الرواية وتنقيحها، إضافة إلى المقدّمة التي كتبها في قراءة الرواية.

تتزاحم الكلمات في صدري، وأراني عاجزة عن التعبير عما يختلج به من فرح شديد.

لقد كانا لي شمعة أنارت لي الطريق، وسحابة معطاء بكل ما هو جليل وجميل وكريم. لهما منّي كلّ الثّناء والتقدير، وباقات من الشّكر وأطواق الياسمين.

مقدمة

هذه هي روايتي الأولى البكر، وهي أوّل ثمرة من بنات أفكاري ومشاعري مرسومة على الصفحات، موسومة بروحي، فيها تناولت جوانب كثيرة متشعّبة من شخصيّتي المرأة والرجل، وما يعانيانه في المجتمع الشّرقيّ، هذا المجتمع الذي يجد فيه شمس نفسه مقيّدًا بالظروف الاجتماعية التي تحول بينه وبين تحقيق أحلامه الإنسانيّة البسيطة مع من يحبّ في ظلال الحبّ.

لقد صوّرت طبيعة النفس البشريّة حين تكون قاب قوسين أو أدنى من الموت، والانتصار عليه بقوة الحبّ، وعالجت مسألة الحبّ بمعانيه كافّة، على المستوى الفكري والروحي والجسدي، ومتى وكيف يتخطّى حدود الزمان والمكان والتقاليد والأعراف في صياغة أدبيّة سهلة دون أن يمس أحدا بأي أذى.

الحبّ هو جوهر حياة الإنسان منذ كان، الحبّ تحت وصاية البيئة الاجتماعية التي لها موقفها المناقض الذي يرى فيه خروجا ومروقا على قوانينها الصارمة.

ولم أنس تصوير طبيعة وطني الجميل لبنان في ثنايا الرواية.

كلّ إنسان يحتاج إلى الحبّ، هناك من يهرب منه حين يصادفه في التوقيت الخطأ والشخص الصحّ، مع الأخذ هنا بعين الاعتبار قانون الصح والخطأ في العرف الاجتماعي، وهناك من يسعى إليه جاهدًا، وهناك من يبكي على أطلاله.

في "رغباتٌ مهشّمةٌ" لي الشّرف أن أتناولَ الصّراعَ في شخصيّاتِ الأبطال، وتسليطِ الضوءِ على هذا التشرذمِ والتناقضِ بينَ الواقعِ والعالمِ الخياليِّ، ولا سيّما في حياةِ امرأةٍ تنزف حزنًا من شظايا كوابيسِ مجتمعٍ تركَها مهشّمةً، إنّها امرأةٌ ترى نفسَها ذاتَ رغبات مسجونة ومكبوتة في لوحة معلّقة على جدار الحياة، مثقَلة بالتناقضِ الذي نجدُه في نفوسِنا حينَ ننظر إليها بكلِّ عمق وصدق.

شمسٌ وحياةٌ

فِي سكونِ الليلِ موسيقا

لا تسمعُها إلا الأرواحُ الصافيةُ

أبحثُ عنكَ فِي أجفانِ الفجرِ

أفتشُ عن صورتِكَ فِي شعاعِ القمرِ

المتراقصِ على صفحةِ الماءِ

وبينَ زبدِ الموجِ المتدحرجِ على الشّاطئِ

يعانقُ الرّملَ الباردَ

أفتّشُ عن بقايا الأحلامِ التي بنيناها معًا

أصابعُنا تتشابكُ

والنورسُ يشهدُ ولادةَ عشقِنا

ما بينَ التنهّدِ وأنّاتِ الحنينِ

أتلو تعويذةَ حبكَ

وما بينَ حشرجةِ الدمعاتِ

تنسابُ على أوراقِ الكادي

تبايعُ الحزنَ أفراحي

ألفظُ اسمَكَ

أرسمهُ على أجنحةِ الفراشاتِ

أبعثرُ الأنفاسَ على وريقاتِ الياسمينِ

أخطّها رسائلَ عشقٍ وألمٍ

وما بينَ شموعٍ تتراقصُ ألسنتُها

في انتظارِ حضورِكَ كلَّ مساءٍ

أخلعُ ردائي وأرتدي عطَركَ

وأملأُ عنقي بعقدٍ من اللؤلؤِ

ومعصمي بسوارِ وردِكَ الأزرقِ

أتقلدُ العنبرَ على خاصرتي

كمحاربٍ يتهيّأُ لمعركةٍ

فيها تقريرُ المصيرِ

أهرعُ إلى زجاجِ نافذتي البارِدِ

أسدلُ ستارَها الأحمرَ

طيفكَ حاضرٌ

فما همّني ما يدورُ من حولي

وأنا بينَ ذراعيْكَ

أتلو الألمَ ألحانَ عشقٍ وأغنّي آهاتِ اللذةِ

أستسلمُ لعذوبةِ ثغرِكَ

تسقطُ كلُّ أقنعتي.. أُسلّمُ كلَّ أسلحتي

أذكرُ فقطْ همسَكَ في أذني تقولُ: أنتِ لي..

نعمْ.. أنا لكَ.

حزيران ٢٣_٢٠١٨

موعدٌ

سألوذُ الآنَ بحضنِ الليلِ

أدندنَ نغمَ الهوى في أحلامي

وأرسم تفاصيل اللقاء على وسادتي



أغلقت هاتفها وهي تسمع نفسها تقول: نعم، سألقاك الصيف القادم، تقف في ركن غرفتها، ساعة الحائط تئن، تقرع ناقوس الخطر، كيف، لماذا؟ كيف لها أن تعده بهذا الوعد، وهي تعلم جيدا أنها لا تملك شأن الغد؟ كيف لها أن تربطه بموعد؟ قال: إنه ينتظره من سنين، شغوفة هي، هل أحبته أو أن الوحدة القارسة جعلتها تتعلق بكلّ حرف من حروفه، لا تعرف منه سوى شبح خطوط سوداء على الورق، لا تعرف منه سوى نأمة حلم، من أين كلّ هذه الجرأة؟ تشيح بنظرها إلى البعيد، فراغ مبهم، لا ترى شيئا، لا تسمع سوى دقات قلبها المتسارعة، وخطى أفكارها في حوار لا ينتهي ما بين

قبول واستغراب، وما بين مشاعر تصارعت بين فرح وخوف، يجب أن تضع حدًّا لهذه المهزلة، يجب أن، يجب أن.. ، تنظر إلى روزنامة الحائط ، تقلب أوراقها ولهفة عينيها تسابق أناملها، تريد أن تعرف متى يأتي الصيف القادم، أي صرخة دوت في ضلوعها، وقفز قلبها من مكانه؟ الصيف بعد شهر، نعم هي على مشارف الصيف، لم تدرك من قبل، بلى بل أدركت جيدا أنه قريب، ربما تخدع نفسها، من يدري؟ ولكن لماذا اعتراها هذا الخوف والدهشة؟ ألم تكن تدري بأنها ستراه بهذه السرعة؟ امتعضت للفكرة، لا تريد أن تراه الآن، بلى قال لها الصوت في داخلها:

- ستلتقينه، تصافحين يده، تقرئين ما تُخبئه عيناه، وإن طال مكوث يده في يدك فستتعرفين دهشة الحب، هناك لعلك تجدين الأجوبة لكل الأسئلة التي طالما أرقت نومك، نعم ستعرفين قصة حياته، وقصتك معه، ولماذا هو بالذات؟ لا تكوني جبانة، ألم تدركي بعد أنك على باله من سنين، تسكنين روحه، قال من قبل اللقاء. تركت الأريكة، اتجهت نحو سريرها، تعدى الوقت

منتصف الليل، وهي ما زالت ساهرة، قبل أن تلقي جسدها الواهن على السرير نظرت في المرآة، رأت شبح صورتها داخل المرآة، اغرورقت عيناها بالدموع، تعدت عمر الحب، خصلات من الشعر الأبيض تكلل رأسها، لم تعد صغيرة، لقد كبرت، شيء ما انتفض بداخلها قائلا: لا! ألست أنت من كنت ترددين: إن العمر لا يُحسب بعدد السنين؟

والعمر هو التصور لما تريدين أن تكوني عليه؟ وانعكاس الروح والداخل، إنها مجاملات، ولكن العمر هو عدد السنين، حتى ولو كان القلب ما زال ينبض بالحب، حتى ولو في كل لحظة كنت فيها تشعرين أنك ابنة العشرين، لا لست ابنة العشرين، لقد تعديت العمر المسموح به للحب بأعراف البشر على الأقل.

لا، لا قالت، وابتسمت، لن أُهزم من ذاتي، لن أدع هذه الأفكار تُسيطر عليّ، ما دام في عروقي نبض، وما دام في صدري قلب ينبض بالحياة، فأنا عاشقة، ابتسمت لهذا التصميم، ارتمت على سريرها، أنهكها التعب والسهر

وكثرة الأفكار المتطاحنة، ومعارك المشاعر، أسلمت للكرى عينيها، وهي تردد آخر كلمات قالها لها.

- شوقي لهذا اللقاء لا تضاهيه أي أشواق، يجري سيولا، لا حبر يستطيع التعبير عنه، ولا قلم يوفيه الحق القدير، إلى لقاء قادم يا طفلتي، ويا تؤام روحي.

مرت الأيام، وهي ترقب الصيف باللهفة والشوق. سألته يوما:

- هل حالك مثل حالي؟ لم أعرف بما تفكر، وكيف سيكون وقع اللقاء، وبأي حال أنت تتهيأ لهذا اللقاء؟ هل يشغلك كثيرا ما أفكر به؟

- أجابها مبتسما: نعم يشغل حيزًا كبيرًا من أفكاري.

- أي نوع من الأفكار يا تُرى؟

- لا تقلقي، سأقول لك ما أشعر به فقط، لا ما أفكر به، أنا أشعر بأن كل يوم يقترب من موعد اللقاء هو اليوم الذي يقربني من الولادة الحقيقية، واللقاء بأحد

الملائكة الذين لم أتصور يوما أني سألقاهم، تؤمنين بالملائكة أليس كذلك؟

- الملائكة، نعم أؤمن، ولكني لست منهم، أجابته مبتسمة.

- لا، جميلتي، يا من إليها يسارع قلبي، أنت منهم، تواضعك يمنعك من الاعتراف.

- بل تواضعي هو أن أقرّ بحقيقة ذاتي، أنت لا تعرفني حق المعرفة بعد، لا تعرف مني سوى ما أظهره لك.

- أنا لا أعرفك، ربما كلامك صح، ولكن أشعر بك، أستنشق روحك، أراك برؤاي ما لا ترين عن ذاتك.

- كل هذا؟ وماذا لو أن مشاعرك تخدعك ولا تخبرك الحقيقة، ورؤاك في غير محلها، ألست خائفا من اللقاء؟

- لن أرد على مخاوفك.

- حسنا، أنا من سألك اللقاء، وأنا من سيتحمل نتيجة القرار.

- هل هذا يعني أنك خائفة من اللقاء؟ لماذا؟ هل تخافين أن أخذلك؟

- بل أخاف أن أخذلك أنا.

- ولماذا الخذلان وهذا الشعور المتناقض يا جميلتي.

- لقد فاجأني طلبي منك باللقاء لا شك، فأفكاري ومشاعري كأنها حبلى بألف فكرة،

لا أعرف كيف أُفسر ما يعتريني، كيف أقنعتني بهذا اللقاء، كيف شغلتني عن ذاتي، واقتنصت مني الموافقة؟ أشعر أني أخون ذاتي بين قبولي بلقائك وهروبي منك، ما بين رغبتي فيك، و الهروب من التقاليد والأعراف، سامحني، فأنا أفكر بصوت عال معك كما عودتني دائما، معك أشعر أني أقرب إلى نفسي مني، معك أختلي مع نفسي.

- لا شيء يمنعني عنك برغم ما يصيبني من قنوط في غيابك، وبرغم ما يشعرني كلامك بالألم الذي أسببه لك، ولكن حين أستعيد نغمة صوتك في أذني، أطير مثل عصفور بلله المطر، أنتفض، أفكر بك، بيوم

اللقاء، وعلى تلك الفكرة أحيا، غيابك والحضور ما يشغلني، فليس على هذه البسيطة ما يستحق مني أيّ اهتمام، لا أعرف إن كنت قد تخطيت حدودي معك، ولكني أقول بملء الفم: أنا في ذروة الشوق لذلك اللقاء، سميه ما أردت، فأنا لا أزعم أشياء ليست عندي بل ببراءة طفل أكتب لك، فما أشعر به هو استثنائي، لأنك استثنائية، هل عرفت رأيي الآن بيوم اللقاء؟

- مفرداتي لن تكفي لما يدور في خلدي يا صديقي، ثمانية وعشرون حرفا لا تكفيني، لأن ما يخالجني هو صراع منذ بداية الخليقة بين الخير والشر، بين الحب والكراهية، بين الحرية والعبودية، أرى ذاتي في مرآة أخرى، أنا معلقة بين الشهوة والحب المقدس، أنا أنثى لها من القناعات المدفونة أطنان، ولها من قصائد العتب على الذات لا تكفيها مجلّدات، لأني لم أعرفك من قبل، مزروعة تحت الرماد، ممنوعة من الانتشار، ماذا ينفع الكلام الآن؟ فأنا في خوف من اللقاء، لا من خوف الخذلان.

- يا جميلتي في زمن الحرمان، وزمن الذم في مشاعر الإنسان، كوني محملة بالخير كسنبلة قمح، وكوني الفرح في بوتقة الإنسانية، وكوني الشمعة التي تضيء ظلمة الكون، وتنير جوانب حياتي.

- جبان أنا في حبك، أعترف، دعينا من الأوهام الآن، ولننظر إلى ذلك اللقاء بعين العشاق، لنترك القدر يرسم لنا أفكارنا، ولنترك الفلسفة لأهل الفلسفة، ونلتقِ دون تكلف، رغبة جامحة تعتريني أن أقول الكثير، وأكتبك في الكثير من القصائد، ولكني أستميحك عذرا، فأنت أرقى من أن أحدك في حروفي، وأجمل من أن تكتبك الأبجدية.

- إلى اللقاء أيها الغريب والمتغرب في زمني هذا.

- إلى اللقاء.

عادت إلى حجرتها، وأوراقها المبعثرة، تجمع شتات أفكارها، وتسكبها كلمات يتيمة على الورق، في بهتان هذا الزمان، اختل توازنها، كما اختلت أفكارها كما هذا المكان، أيها الليل.. اشهد بكل ما يخالجني من أشباح

العشق الجليل، أيها القمر، اشهد على كلمات الحب، أيها الروح الهائم في الفضاء، اشهد على هذا الشعور الجميل في زمن القبح، سألتقيه نعم، وأعرف من هو، أريد تذوق شهد اللقاء من أنامله، أريد أن أستقطر بلسم روحي من نظرات عينيه.

مر أسبوعان وأكثر، وجدت منه رسالة يسأل فيها:

- لم نتفق أين سيكون اللقاء، في أي مكان من ربوع لبنان؟

- آه.. لم أفكر بعد في المكان، ما رأيك بالطبيعة الجميلة في هذا الوطن المذبوح؟

- أين؟ في جباله الشاهقة المكللة بالجمال بعيدا عن أعين حشرية أهل المدينة.

- حسنا هناك.

- إلى اللقاء أيتها الجميلة إذن.

- مهلا.. كيف لي أن أعرفك، وأنا لا أعرف منك إلا خطوطا وهمية؟

- لا تقلقي، أنا سأعرفك ولو من بين ملايين البشر، سأدركك بإحساسي، وأعرفك بمشاعري، دعي تلك اللحظة لساعة اللقاء، تعرفين المكان والزمان، لن يكون صعبا عليك أن تعرفيني، دعي إحساسك يقدك، وأنا سأرضى بالنتيجة.

- ماذا لو تهت عنك، ماذا لو قادتني خطواتي إلى طاولة أخرى، مقهى مكتظ بالناس، والكثير من الرجال الذين يبدون لي في انتظار أنثى ما؟

- اتركي هذا للزمن، كما تسللت إليّ من بين الألوف ستعرفين من أنا من بين الألوف.

يومُ السّفرِ

غدًا أو بعدَ غدٍ
انتظرْني معَ بعثرةِ الريحِ
على قمّةِ الليلِ في صومعةِ القمرِ
توجْني بنجمةِ الصبحِ
في الغيابِ ليسَ لي دورٌ
وفي الحضورِ من يحدّدُ اللقاءَ؟



شنطة وثياب مبعثرة في كل أرجاء غرفتها، ماذا تختار؟ أي الملابس ترتدي؟ عائدة إلى الوطن بعد ثلاثين سنة، كيف هو بلدي؟ كيف أضحى حاله بعد سنوات الحرب هذه؟ تذكرت كلّ شيء، ظل الشجر يزين الطرقات الجبلية، أصوات باعة الخضار والكعك، ووجوههم السمراء التي لوحتها أشعة الشمس، يركضون وراء أرزاقهم في أزقة وشوارع بيروت، صوت البحر والموج يضرب صخرة الروشة، الطريق المتعرج إلى

ضهور الشوير، إلى جبال الأرز، كل هذه المشاهد مرت في مخيلتها وهي تُعدّ حقيبتها، لقد بدأت العدّ العكسيّ كطفلة حديثة العهد بالسفر وإعداد الحقائب، لم تدرك ما تختار، أغلقت الحقيبة، ونثرت العطر، وتركت حجرتها بعد نظرة وداع، ربما لن تعود إليها بعد هذا السفر، ما زال صوته يرن في أذنيها:

- إلى اللقاء، دعي القدر يعرفني بك، دعي الحدث بعفويته، دعي اللقاء ببراءته.

مذياع الطائرة يُعلن الإقلاع، آن لروحها أن تُقلع عن جحافل الخوف والقلق.

كفّ عن الاضطراب أيها القلب، فأنا أتهيأ للقاء العمر، تريثي أيتها الأنفاس، فما زلت في الطائرة، هناك ساعات تفصلك عن اللقاء، همس صوت بداخلها، بدأ العدّ العكسيّ، اقترب موعد هبوط الطائرة في أرض المطار.

مطار بيروت، بلدي، ما أجمل رائحة الصنوبر والشربين والأرز، ما أجمل شجر الزيتون، كم اشتقت إلى

أصوات الحساسين في ربوعك، كانت هنا بالأمس، ولكن كل شيء أصبح غريبا عليها، غيرت الحرب معالم البلد الذي ترعرعت بأحضانه.

أين الجبال التي كانت تتكلل بشجر الصنوبر؟ تراها الآن كومة من حجارة الأبنية الشاهقة؟ أين الدرب الطويل الذي كان ضباب الصباح يغطيه؟ أين أنت يا وطني؟ لم أعرف منك سوى صراخ الباعة المتجولين، وأشياء مُبعثرة، وسيارات وزحام وركام، إلى الجبل أريد أن أجري هربا من ضجيج المدينة ومن ضجيج روحي.

مسافرة، لا شيء لديها سوى حقيبة يد وأمل وهاجس لقاء، تنفست الصعداء حين وصلت إلى الفندق، شكرت ربها لأنه ما زال يختبئ بين أشجار الصنوبر، لم تمتد إليه يد الإعمار بعد.

سارت نحو نافذة غرفتها التي تطل على الجبل المقابل، آه يا بلدي، كم اشتقت إليك، كم رسمت لك في مخيلتي من الصور، جبلك، بحرك، شجرك، وناسك، أعشقك رغم ويلات الحرب التي أصابتك، مر

الوقت ولم تدرك إلا أن الساعة تخطت الثامنة ليلا، لقد هرب النوم منها، ولكن يجب عليها أن تنام، فهناك يوم طويل أمامها غدا، يجب أن تكون بكامل حيويتها ووعيها، بدلت ثيابها بسرعة، تناولت وجبة عشاء خفيفة، وأسلمت ذاتها للنوم تحلم بيوم الغد، صوت يدق باب أحلامها بخجل:

- ماذا سترتدين غدا؟ وبأي ثوب سوف تلتقينه؟

تجاهلت الصوت عمدا، أغمضت عينيها، ونامت، لتستيقظ في الصباح الباكر على صوت زقزقة العصافير الذي تناهى إليها من النافذة، من الحقول المجاورة حيث شجر الصنوبر يزين المكان بشموخ. جلست إلى شرفتها ترمق الصبح بعين من الحيرة والقلق والمشاعر المتضاربة، صفاء الصباح يذكرها بطفولتها، ودفء الشمس يذكرها بسرير تركته ربما إلى غير رجعة، غارقة في أفكارها ومشاعرها التي انحسرت مع أنفاسها داخل تمتمة استجداء كفى.. كفى! قطع حبل أفكارها صوت التلفون، من يا تُرى يُهاتفها في هذا

الصباح الباكر؟ مدت يدها لتجيب، لكنها لم تقو على إمساك الهاتف، ماذا ستقول له؟ كيف تصف حالها الآن إن سألها كعادته كيفك الآن؟ تركته متجاهلة يرن مرة واثنتين، وداخلها يئن، تريد أن تسمع صوته، لكن كبرياؤها تريد منها أن تتأكد أنها ما زالت تعزم على هذا اللقاء، آه.. آهة خرجت مع حشرجة مؤلمة.

- أدفع عمري الآن لو أجد أحدا ما يستطيع تفسير ما أشعر به، وماذا أريد الآن؟ لقد استهلكتني أفكاري، وداخلي دوامة بلا نهاية، كل شيء في فوضى عشوائية وحرب شعواء. قالت هذا وهي تذرع الغرفة، حتى استقرّ رأيها على أن تُفرغ حقيبة السفر.

فتحت حقيبتها، وراحت تتأمل كلّ ثوب على حدة، الأحمر، جينز أم الأبيض، ماذا لو ارتدت فستانها الأزرق؟ مرة أخرى يهزمها اللون الأزرق، ورنة الحلق، تبتسم بخجل، عاد التلفون يرنّ من جديد.

لم يجبرها أحد على أن تكون هنا، منذ الكلام الأول معه عن اللقاء، لم يُجبرها على القدوم، ولم يجبرها

على اللقاء والزمان، يا لها من أفكار عُجاف، لقد غدا اللقاء به من ضروريات الحياة، وحاجتها له كحاجتها للأوكسجين الذي تتنفس، لا ذنب له في دوامة الحيرة التي تكتنفها الآن، وليس له أي ذنب كي تتجاهله هكذا. أخيرا أجابت هاتفه، شعرت أن الأرض تدور بها، وأن دوارا أصابها، جلست على أقرب كرسي، وهي تحاول أن تخفي اضطرابها وارتعاش صوتها.

- حمد لله، بالسلامة يا جميلتي.

- شكرا.. شكرا، أجابت.

- كيف كانت الرحلة والفندق وكل شيء؟ هل نمت جيدا؟

- أجل، أجل كل شيء تمام، تمام.

بدا صوته كتلة من الأمل والسعادة، كم يحمل من الفرح إلى قلبها، هنيئا لك قالت في سرها كم تبدو هادئا وسعيدا، وأنا مشوشة الأفكار، مخنوقة وحيرتي تقتلني.

- أنا في الطريق إلى المطعم حيث اللقاء، أردت فقط أن أطمئن عليك، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

سارعت إلى ارتداء فستانها الأزرق، وضعت القليل من الماسكرا وبعض مرطب البشرة على وجهها ورشة عطر، رمقت ذاتها في المرآة بعين الرضى مبتسمة، هرولت إلى باحة الفندق تسأل عن تاكسي ليقلها إلى المطعم القريب من الفندق.

الوردُ الأزرقُ

الوردُ الأزرقُ

في نقاءِ لونِهِ ورقّتِهِ أغرقُ

إنّهُ كالموجِ للأعماقِ يشدُّني

وبكلِّ همساتِ حبِّك يذكِّرُني



دقائق تفصلها عن اللقاء، محرجة لا قلقة، كيف يكون اللقاء؟ هواجس وارتباك وقليل من الخوف رافقت طريقها إلى المقهى حيث ينتظرها، لقاء تاريخي بين العمالقة، يتردد كلامه في مسمعها، هل يراها عملاقا وهي كيف تراه؟ ضجيج أفكارها طغى على ضجيج الطريق، توقفت السيارة فجأة، أو هذا ما شعرت به.

- هل وصلنا؟

سألت السائق.

- نعم.. أجابها.

- أبهذه السرعة؟

تمتمت وهي تعطيه الأجرة.

- سلمت يداك.

- بالتوفيق سيدتي أجابها مبتسما.

أحست كأنه يرى، ويعرف ما يُقلقها، ويسمع ضجيج أفكارها.

- أستميحك عذرا، ماذا قلت؟

- لا شيء، فقط أتمنى لك يوما جميلا وبالتوفيق.

- شكرا.. شكرا.

قبل أن تدخل المقهى لفت نظرها امرأة تبيع الورد في كشك صغير، دلفت إليه، وراحت تفتش بين الورود.

- لا أرى أي ورود زرقاء، هل يا ترى يوجد ورد أزرق لديك؟

- ورد أزرق مرة أخرى، ما بال الزبائن اليوم؟ الكل يُريد وردا أزرق، لا يا سيدتي آخر وردة بعتها من حوالي ساعة.

- حسنا، سأشتري هذه، سأشترى كبش القرنفل الأحمر ذاك.

- أحسنت الاختيار.

هل يكفي كبش القرنفل هذا؟ نفضت كتفيها بغير اهتمام يكفي.. يكفي. توجهت إلى المقهى كيف ستلتقيه، وتتعرف إليه؟

لم تره من قبل، وهو لم ير منها سوى صور باهتة وقديمة، دقات قلبها متسارعة،

تتلفت يمنة ويسرة وشعور يعتريها أن كل من في المقهى ينظر إليها، ويعرف سبب تواجدها هنا، لا آبه، قالت، وتنهدت: أرجو أن يمر هذا اليوم بخير.

بادرها الجرسون بالسؤال:

- كم شخصا سيدتي؟

- ماذا؟ لا أعرف.

كلمات لا معنى لها قالتها.

- كم شخصا سيكون على الغداء أم إنك وحدك؟

عاد يسأل، أجابت بابتسامة:

- بل أنا مدعوة للغداء، وهناك من ينتظرني.

- آسف سيدتي، تفضلي بالدخول، ولكن تحت اسم مَن الحجز؟

- لا تقلق، سأجد طريقي إن سمحت لي بالدخول.

- طبعا.. طبعا.

تنفست الصعداء عندما هربت من كثرة الأسئلة، بدت روتينية وبحكم وظيفته ولها، بدت وكأنه يقرأ قصة حياتها، ويتسلل إلى خبايا أفكارها، ويكشف سرها.

سارت بخطوات وئيدة مثقلة تجر قدميها المرتجفتين، وتسير بين طاولات المقهى، صوت وديع الصافي يصدح: "عالله تعود عالله.. يا ضايع في ديار الله..".

حاولت أن تُركز في كلمات الأغنية واللحن الحنون والصوت الجبلي الدافئ، مقهى صيفي كعادة أهل الجبل، يزدان بنافورة في الوسط وبعض الحبق، رائحة الطعام تختلط مع رائحة الأرجيلة، خرير النهر يطغى على الموسيقا أحيانا وصوت الزوار، فالمقهى يقع على

ضفة نهر ينساب من إحدى قمم جبال لبنان، كل هذا لم يشغلها عن صراع أفكارها، أرادت أن تعود أدراجها بعد أن قطعت نصف المقهى، أن تهرب، أن تختفي إلى أن رأت طيف رجل يجلس في إحدى زوايا المقهى يهم بالوقوف، يطيل النظر إلى عينيها، ووردة زرقاء على حافة الطاولة أمامه، جالت بنظرة سريعة في أرجاء المكان، لترى هل هناك رجل آخر يجلس وحيدا، ربما هذا الرجل مصادفة هنا، لم تجد أحدا، فالكل مشغول بالأكل والشرب والحديث والضحكات تتعالى.

لقاءُ الجبابرةِ

ما بينَ ليلِ البوحِ وسطورِ الكلامِ

وما بينَ رحلةِ الفجرِ والغروبِ

من هناكّ.. من بينِ الأناملِ

ينبثقُ نورٌ يسطعُ حرفُ الحزنَ

عن كاهلِ الأيامِ يرفعُ



- إذًا هذا هو.

تثاقلت خطواتها وهي تنظر إلى عينيه، وسرٌّ خفيٌّ يشدّها إليه، وجهه مشرق بابتسامة، عيناه تلمعان بفرح وجاذبية عجيبة، يده تمتد لتصافح يدها.

- مرحبا.

مرتبكة كلماتها، مدت يدها لتصافح يده، إذن هذا هو لقاء الجبابرة، أن يخطفنا من ذاتنا، ويسرق الكلام منا تتلاقى الأيادي ببطء، والعيون تُخبر ما عجزت الشفاه

عن أن تنطق به، مرتبكة وعاجزة الكلمات، تجتهد كي تقول، لكن لا فائدة، مشدوهة.

- تفضلي بالجلوس، وأضاف يسألها: كيف كان الطريق؟ أرجو أن تكوني قد ارتحت.

- أجل، كل شيء تمام، الفندق جميل، والطقس وكل شيء رواق.

قالت وعيناها شاردتان نحو النافذة القريبة، تحاول أن تخفي شيئا ما لا تعرفه، أو لعلها عرفته، ولا تريد البوح به حتى لذاتها، ما زالت تحمل بيدها كبش القرنفل، رفعته إلى شفتيها، كأنها بها تزرع قبلة على وجنة الوريقات الناعمة، همست:

- لم أعرف ماذا أجلب معي، ولكن أرجو أن تقبل مني هذه الهدية.

ارتبك، بسرعة رفع الوردة الزرقاء، وقدمها لها.

- آه.. يا لغبائي، حضورك طغى عليّ، وأنساني نفسي وهديتك، وأردف قائلا:

- الأزرق النقي كنقاء روحك، أذكر جيدا كم تعشقين الورد الأزرق، أرجو ألا تكون قد ذبلت، لقد اشتريتها منذ ساعة ونصف تقريبا.

- إذن.. أنت من اشترى آخر وردة زرقاء.

قالت في سرها ابتسمت وأخذت الوردة.

- لك ذاكرة جبارة، نعم عشقي اللون الأزرق.

- وثوبك الأزرق جميل جدا قاطعها بالقول.

هربت من بين شفتيها الكلمات، لم تجد ما تقول، نسيت الحروف، كأنها لم تكن يوما سيدة الحروف، تسافر في نظراتها، تتأمله بخجل، تقودها الروح، لتمخر عباب روحه، لا تسمع سوى صدى صوت من بعيد يقول:

- نسيت من أنت، ونسيت ذاتك وأتيت، والآن ماذا بعد، ماذا بعد الآن؟

عيناه مزيج بين العسلي والأخضر تُمطرها بنظرات لا تعرف كيف تفسرها، جعلتها ترتجف، تصارع كي تكبح جماح المشاعر التي تغمرها.

- الشفتان أجمل من أجمل لوحة ، لو أردت أن أرسم فتاة أحلامي لما استطعت أن آتي بهذه الصورة، الابتسامة التي طالما سرقت مني روحي ها هي الآن أمامي.

حوار صامت يجري بينه وبين ذاته.

- دلع العيون، رقة وانسياب الأنامل، لون جلدك الخمري، والشعر الغجري المسافر.

ماذا أقول يا دهر، لماذا علي تأخرت، أين كنت قبل اليوم؟

- ماذا تريدين أن تشربي سيدتي؟ أم أنتم جاهزون لطلب الغداء؟ قاطع حبل حوارهم الصامت صوت النادل في المقهى.

- ماء، أجابت.

- أعطنا خمس دقائق أخرى.

لقد أنقذ الموقف، ابتسمت.

- ها.. والآن يا سيدتي، ماذا عن الطعام، تبولة وبعض المشاوي.

- جيد لي قالت.

- حسنا.

كأن جدارا من الجليد قد انكسر، ها هو أمامها، تضحك بعفوية لكل كلمة ونكتة يقولها، وبين الفينة والأخرى تسترق النظر، لتتأمل عينيه، طالما حلمت بلونهما، وابتسامته وشعره الكستنائي، بشرته

الحنطية، تيشرت أبيض وجينز، ممتلئ الصدر، كل شيء فيه يشدها، وكل شيء فيها يسحره، تجاذبا أطراف الكلام، وبين الحين والحين يرفع كبش القرنفل إلى شفتيه.

- إنه أجمل قرنفل استلمته بحياتي، ويبتسم.

- لا تبالغ، تجيب مبتسمة بدورها.

لم تدر كيف مرت الساعتان وهما جلوس ما بين صمت وتردد في الكلام، رائحة المكان والموسيقا التي تطرب لها القلوب، والأهم هذا اللقاء، لقاء العمالقة.

- هذه الثواني الحميمية قالت في سريرتها تستحق التدوين.

- أنا تحت أمرك، ماذا تريدن أن تزوري؟ على رسلك وأنا في تصرفك.

- لا أملك أي مكان معين.

مشيا معا، وخرجا من المقهى.

- الجو لطيف، دعنا نمشِ قليلا.

- بكل تأكيد.

الحديث لم يكن عن شيء معين، سارت بهما الطريق نحو الفندق.

- هنا أقيم أنا، هل نأخذ القهوة في الداخل؟

- ترى فيه ما لم تره في أي رجل آخر، أرادت أن تخبره، ولكنها صمتت، وهي تتأمل وجهه، والحياة قد حفرت لها أخاديد وخطوطا، إن دلت على شيء فهي تدل على أنها لم تكن بيوم سهلة أمامه، ولم يكن قد ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل رجل كما كان يقول لها دائما، صنعت ذاتي بذاتي، ونفسي عزيزة لدي، متروك منذ صغري أصارع الحياة، أجازف، أغامر، أقامر، كم مرةٍ كنت أُصدم وأقع، ولكن أقوم من جديد، كأن القدر لي

بالمرصاد، كلما شارفت على قطع مرحلة من حياتي ضغطت على زر البداية، لأعاود الكرة من جديد، ولكن لا بأس، هي دروس، ولكنها باهظة الثمن، إنما هي التي أوصلتني إلى ما أنا عليه الآن، ولكن أصعب درس واجهته كان يوم التقيتك، وجدت أن الحياة تقول لي: ما رأيك الآن في هذه النهاية البداية؟

- سادة ومرة أليس كذلك؟

- نعم، ولكنها ستحلو كثيرا بحضورك.

- ريتا.. لأول مرة يلفظ اسمها.

- نعم، أجابت بصوت خافت يحمل الكثير من المعاني والشجن.

- نبض قلبك نبض قلبي، والسكون يتحول إلى صخب الخلود في حضورك.

- وماذا بعد؟

ابتسمت حين رأت الحيرة تربك نظراته التي كادت تخترق صدرها وروحها، آه.. كم هي شفافة الآن، أتراه يشعر بما تشعر به، وهل يا تُرى يسمع نبض قلبها؟

- ماذا بعد؟ أردفت قائلة.

- أخاف أن أكمل.

- تخاف، لم.. وممن الخوف؟ سألته متعجبة.

- لا أعرف كيف خرجت هذه الكلمات مني، لا أدري ما دهاني، لا أريد أن تريني متطفلا، ولكن هكذا أنا حين أعشق تجتاحني المشاعر، والكلمات تخرج مني عنوة، لا أستطيع كبح جماحها كفرس هارب من وجه مروضيه، لا.. لا الحق أقول لك، لا أريد كبحها، أريدها أن تعدو في هذا المدى الفسيح الذي اسمه روحك، أريد لروحك أن تعرف ما يخالجني وأنا عفوي بالفطرة.

ريتا ..

وسكت، وسكتت هي أيضا، وساد سكون وصمت بينهما سكت الكلام، وصمتت الشفاه، ولكن العيون كيف لها أن تصمت؟ من يستطيع كبح جماح بوحها؟ إنها حقا نافذة الروح، ترى من خلال عينيه ما لا يراه ويعرفه عن ذاته، وتخترق نظراته روحها، ليرى تلك لطفلة المدللة، تلك الطفلة الأنثى في جسد امرأة، يرى ارتعاش الخوف

من العشق، ومن الوقوع في الحب، يرى فيها تاريخ بشرية بأكمله، يقرأ عناوين صحف النسيان، ومرساة من الأمان على شاطئ الحياة، يرى "إنسانة" فيها كلمٌ وجرحٌ لم تستطع ابتسامة الحياة في شفتيها أن تخفيه، إنها تحوي كل نساء العالم بكل ما فيهن من جمال وغموض وعفوية وشموخ.

- ماذا ترى أيها الغريب الجالس أمامي؟ أخبرني، أجبني بالله عليك، لا تصمت، هل ترى قلقي أم خوفي أم ترى الحنين الذي يتدفق من مقلتي، أم يا تُرى تسمع نبض قلبي يدق ناقوس الخطر ولهفتي إليك، كيف لي أن آتي بمحض إرادتي إلى حتفي، أسير بخطى وئيدة وبكامل حريتي وأنا أعلم مسبقا أنه لا عودة؟

لقد مضى النهار، وحل المساء وهما معا يتجاذبان أطراف الحديث، ويتكلمان عما يدور في بقاع الأرض في الجهات الأربع.

- أين تقيم الآن؟ أنا أعلم أنك أيضا أتيت من سفر بعيد.

- لم أجد فندقًا بعد، أو بالأحرى لم أحجز بعد.

- لماذا؟

- لست أدري، ولكن لا تهتمي، هناك الكثير من الفنادق.

قبل أن يكمل قالت:

- لماذا لا تسألهم هنا ربما تجد غرفة شاغرة؟ ابتسم ووقف وسار نحو الصالة دون تردد، وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح منها، خمس دقائق، وعاد مبتسما.

- لقد تمّ، من حسن حظي وجدت غرفة، شكرا لك.

- لماذا تشكرني؟ ضحكت.

- لأنك أنت من لفت نظري، وسمحت أن أقيم في ذات الفندق حيث تقيمين.

لم تعقب بأي كلمة، هي من أرادت أن تكون قريبة منه هذه الليلة، وقبل هذه الليلة، وبعد هذه الليلة، أرادته إلى جوارها تقبله، وتداعب شعره الكستنائي، وتشم رائحة الصيف في راحتيه، وتعبث بشعر صدره، يداعبها طفلة على صدر أبيها، وتخلد إلى النوم على وقع عزف سمفونية قلبه.

- ماذا ستفعلين هذا المساء، ما هو برنامجك؟

- لا شيء، ليس لدي أي برامج.

- هناك سهرة طرب هذه الليلة هنا في الفندق، اسمحي لي أن أدعوك.

ابتسمت، وهزت رأسها بالإيجاب.

- أما الآن لو سمحت، سأذهب إلى غرفتي، كي أستريح قليلا وأعمل بعض الاتصالات التي نسيتها، فهناك من ينتظر في الطرف الآخر من العالم، كي يطمئن علي. في أي غرفة تقيم؟

٤٠٥- أجابها.

- في الطابق الرابع؟

- نعم في الطابق الرابع، حسنا أراك لاحقا.

- في أي وقت تريدين أن نلتقي؟

- سأتصل بك عندما أجهز، مساء لن أتأخر، إلى اللقاء.

مشت في بهو الفندق، ومشى الهم معها، والقلق يحوم فوق رأسها حتى بلغت غرفتها حيث تسابق الدمع في

مقلتيها على الهطل، وفي صمت مطبق موجع جمعت وجنتيها بين يديها، وراحت تدور في أرجاء غرفتها، تصرخ دون صوت، تشهق، تركل الأرض حانقة، حتى تعبت قدماها من الدوران، وتورمت عيناها من البكاء، غسلت وجهها، ومسحت بقايا الماسكرا من أعالي خديها، وجلست إلى حافة السرير.

أمام عينيها مرت صفحات حياتها، ومن جديد عادت الدموع تحجب الرؤية، ولا ترى من خلالها إلا اللهفة والأسى والغضب، فراحت تخاطب روحها:

- اللهفة عليك أيها الغريب، يا من جمعت روحي بين كفيك ونثرتها، ماذا فعلت بي؟ وكيف لك أن تفعل بي هذا، لماذا تأخرت؟ أين كنت؟ بالأمس القريب كنت أرى حياتي وأنا قانعة بكل ما فيها، قانعة بكل ما جرى ويجري لي، قانعة أرزح تحت وطأة المجتمع، تحت قيود العادات والتقاليد، لم أستطع أن أفرق بين الخضوع وبين الامتنان والقناعة، لم أكن أعرف شيئا عن مسرات هذا الوجود، ولم أسمع من قبل عن هذه الطاقة فوق

الطاقة التي تحرك الداخل بأناملها السحرية، شيء يخترق الكيان، ويحتل القلب، ويلهب الوجدان، شيء يسمونه العشق، كم مرة إلى هذه اللحظة أردت أن أقنع نفسي أني قد عرفت ومارست الحب فيما مضى، وأني عشته بكل أريحية، ولكن ما اكتشفته الآن لم يكن سوى فتات ما يسمونه حب، بل لم يكن حبا على الإطلاق، كنت كنعجة تسير مع القطيع، تقاد مسلوبة الإرادة تحت مسمى الحب، وما هو إلا إذعان وعبودية من نوع آخر.

أحست بالشفقة على ذاتها والغضب، أرادت أن تنتقم من أجل كل تلك السنين الضائعة من حياتها، تحيا فيها شبه حياة، ترثى ذاتها الآن لا، لن ترثي ذاتها قالت بصوت مُحتد، ونبرة تصميم: هناك فرق بين الأمس واليوم، في الأمس كانت غزالة تسير كنعجة مع القطيع، أما اليوم فهي غزالة تركض حرة فوق الجبال تقفز نحو القمم.

تتأوه روحها من جديد، تريد أن تبتاع الحياة بالحياة، هذا مختصر ما يحاصرها من أفكار، نعم حياة، ولم لا؟ طالما أطلق عليها اسم حياة، وها هي الآن أمام الحياة، لماذا لا تقتنص فرصتها منها، وتنتقم بها من قسوتها بأن تعيشها كما أرادت.

مرت حوالي النصف ساعة وهي تفكر بحياتها، وتسترجع ماضيها وتحاسب ذاتها، وتتذكر كل كلامه لها،

لتجد أغرب المعاني لما تتخبط به، فتتوه بين رغبتها الجامحة في الاستمرارية في حياة الارتقاء معه وبه وبين أن تعود إلى حياتها الفارغة من كل حياة. صرخت: ماذا تريدين؟

وهي تقف أمام مرآتها ولأول مرة تواجه داخلها بهذا السؤال المباشر،

فأجابت وهي تنظر إلى داخل عينيها: أريد الحياة.

مرة أخرى غسلت وجهها، وتوجهت إلى خزانة ملابسها، تحاول أن تختار ما سترتديه هذا المساء، حفلة موسيقية وعشاء.

أخرجت فستانها الأسود عاري الكتفين، ضيق يصل إلى مستوى قدميها، خلعت ثيابها، وراحت تتأمل جسدها العاري أمام المرآة، الصدر البطن، الأرداف، تمتمت مقبول كل شيء مقبول، وابتسمت ابتسامة رضى، هو اختار ليتحمل نتيجة اختياره، ضحكت في سريرتها لثقتها بذاتها، وهي تضع بعض خطوط الكحل وقليلا من أحمر الشفاه، نثرت العطر، ورفعت شعرها بطريقة أنيقة بسيطة، والكعب العالي، مما زاد من جمال جسدها الممشوق.

رفعت سماعة هاتف الغرفة، وطلبت رقم الغرفة ٤٠٥، لم يكن يعلم أنه يفصلها عنه حائط، نعم هي في الغرفة المجاورة ٤٠٦، سمعت صوته على الطرف الآخر.

- نعم، كيفك؟

- بخير.. بخير، أردت أن أعرف متى موعد العشاء؟

- أي وقت تريدين، لا وقت محدد، هل ارتحت؟

- نوعا ما قليلا، أجابت ضاحكة.

- أعشق ضحكتك وابتسامتك.

- شكرا لك، وأنت ماذا فعلت منذ أن تركتك؟

- أنا، لا شيء سوى أني جلست أجمع أطراف حكمة أجدادي، وأقطف من كل قصيدة بيت شعر، ومن كل قمر شعاعا وبعض النجمات، وباقة زهر. قاطعته قائلة:

- كل هذا.. كل هذا، وإلام توصلت؟

- بل أكثر توصلت، إنه هناك حكمة واحدة تنفع ولها معنى.

- ألا وهي؟ سألته بحشرية واضحة مستفسرة. أجابها بصوته العميق الدافئ:

- ألا وهي ألا تدع فرصة الحياة تفوتك، لأنها تأتيك مرة فاغتنمها.

- جميل جدا، وماذا بعد؟

- أما عن تلك القصائد التي أخبرتك عنها والقمر والنجوم فقد تضاءلت واختفت، هذا ما اكتشفته حين شرقت في حياتي،

القصائد أصبحت بلا معنى، لأنك أنت قصيدة حياتي، وشعاع القمر لا يضاهي بريق عينيك، أما تلك النجمات فأراها خجولة أمام جمالك، وتبحث عن السحب المتناثرة في السماء كي تختفي خلفها في حضورك، فأنت الزمان والمكان والبحر والسماء، أراد أن يكمل، ولكنها قاطعتها، وهي تقبض أنفاسها بصعوبة، وقلبها ينتفض فرحا.

- توقف، توقف.

- هل أزعجتك بصراحتي وكلامي؟

- لا، لا ولكن إن قلت كل الكلام عبر الهاتف فعمَّ سوف نتحدث بقية السهرة؟

ضحكا معا، وقال:

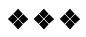
- حسنا، لا تقلقي، فقلبي متيم، وروحي تحمل لك الكثير من الكلام والعشق.

- أراك بعد بضع دقائق.

وأقفلت السماعة قائلة:

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.



لهفةٌ من نوعٍ آخرَ

بردُ الصيفِ يحرقُني

ضاعَ مني عنوانُ الحياةِ

مثلُ الموتِ غيابُك

ولقاؤُك سحبُ صيفٍ ماطرةٌ



لقاء آخر من لقاءات الجبابرة قالت في سريرتها مبتسمة، حملت حقيبة يدها الصغيرة، وألقت نظرة أخيرة على المرآة، وابتسمت، لقد أعجبها ما رأت. فتحت باب غرفتها وخرجت، وإذا بها وجها لوجه معه، صعق غير مصدق ما يرى.

- هل ما أرى واقع حقيقي أم ماذا ؟

- نعم، أنا هنا أقيم في الغرفة المجاورة لك، لم الاستغراب؟

أجابته مبتسمة ومبهورة بالمفاجأة، لم تكن تتوقع وقعها عليه أن يكون بهذا المقدار.

- استغراب، لا، لا بل امتنان وإعجاب، ووقفت الكلمات على شفتيه، ثم أردف:

- هل كنت تعرفين أننا جيران؟

- نحن والقمر جيران ضحكت عاليا، نعم كنت أعرف.

مشيا معا، وهو يرمقها بين الفينة والأخرى بإعجاب غير مصدق أنها إلى جانبه.

- عند المصعد قال: لقد سرقتني الدهشة من قرب جارتي، وبالمناسبة الأسود يليق بك جدا كما اللون الأزرق، أعتقد أنك تضعين مقاييس أخرى للألوان حين ترتدينها.

- مقاييس أخرى؟

- نعم، فكلها تحلو حين ترتدينها، وتبرزين جمالها.

ابتسمت ابتسامة رضى وثقة:

- أعشق دلعك، وهجعة روحك وثورتها.

لم تعرف بما تجيبه، مشيا معا إلى ردهة الطعام، كان عزف الموسيقا قد ابتدأ، ومعظم

الطاولات مشغولة، صوت الغيتار الناعم يعزف مقطوعة غجرية إسبانية مع الأنوار الخافتة تضفي على المكان جوًّا ساحرًا من الرومنسية.

قادهما النادل إلى الطاولة المحجوزة لهما بعد أن طلبا العشاء سألها:

- ماذا عن النبيذ أحمر أم أبيض؟

- أفضل الأبيض الآن، أجابته مبتسمة.

- هل تؤمنين بالخلود؟

- منذ بداية الخليقة والإنسان يفتش عن الخلود في كل شيء، ليس هذا فقط استطردت قائلة: بل يريد ويسعى إلى الخلود، ترى الكثير من القدماء ممن صنعوا لهم التماثيل ليُخلدوا ذواتهم، ومنهم من بنى المباني العظيمة كقدماء الفراعنة المصريين، فالأهرامات ما زالت قائمة حتى يومنا هذا، لتشهد رغبة الإنسان في الخلود، ليس هذا فقط بل عندما كان ملوكهم يعتبرون آلهة، وعند موتهم كانوا يضعون في قبورهم الأكل والشرب والحلي لاعتقادهم أنهم يوما ما

سيقومون، لذا فعليهم أن يكونوا مستعدين، وماذا عن الحضارة اليونانية التي يتخللها الكثير من الأعمال الفنية التي أشارت إلى الخلود بأعمال كثيرة؟ ولكن لماذا تسأل عن الخلود الآن بالذات؟

- أريد أن أخلد كل لحظة أقضيها معك، هذا بكل بساطة، ضحكت قائلة في سريرتها:

تخاطر أفكار أم التقاء أرواح؟ ألم يخطر ببالها هذا الكلام منذ أن رأته لأول مرة؟ أرادت أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة، وهي تقف معه لأول مرة، أرادت أن تقول للتاريخ: سجل أجمل لقاء عرفته البشرية، سجل بوح لهفة العيون وعشق الروح.

- يبدو أني أخذت الكلام عن الخلود إلى منحى آخر، وأنت تريد تخليد الحاضر.

- بل أنت أنجزت بإجابتك وأحسنت، ما أغرب الطرق التي يتبعها الإنسان في تخليد ذاته، وزاد قائلا: هل هناك من خلّد لحظات العشق واللقاء الأول والعشاء الأول؟

- أعتقد أن اليونان والفراعنة خلدوا العشق، والعلاقة بين الرجل والمرأة.

- أريد أن أخلّد هذه اللحظة بين الآلهة العمالقة العاشقة، أريد أن أقول للأجيال القادمة إن الزمان والحياة والقدر اجتمعت في هيئة إنسان، بل إن الإنسانية كلها اجتمعت في "إنسانة" ومن كرم القدر عليّ أني عرفتها، وها هي الآن تجلس أمامي، وأنا من السعادة مصاب بالهذيان، الجنون، ولا أريد من هذه اللحظة أن أصحو.

- هل معقول، ماذا تقول؟

- انظري إلى عيني، واصغي إلى بوحها، تصرخ في هذا الفضاء الفسيح تريد أن تخبرك كم أعشقك، اسمعي حفيف الريح المُثقل بنبضات قلبي تهمس للكون كم أحبك، وهات يدك واستشعري جريان دمي يحمل هواك إلى كل أنحاء جسدي يبث الحياة في أطرافي، فأرتعش وترتجف شفاهي، وأنفاسي تنزف أنشودة عندليب يغرد

على فوهة بركان من اللهفة، هاتي يدك، واستشعري دفء الروح مني.

تتمايل بين أقرانها زنبقة متباهية، تنتصب بينهن في حقول الربيع تقول لأترابها:

- هل رأيتن، وسمعتن هتاف الروح للروح، وهل أصغيتن إلى شغاف القلب محدثا تجلّدي يا نفسي، واستر يا ليل بأكفك حجم أشواقي ولهفتي، يا أيتها السكينة هُبّي على قلبي، وسكني ريح الشوق والحنين التي تجتاحني.

- لقد قرأت الكثير، وسمعت أكثر عن حكايات العشاق وأناشيد العشق، ولكن حتى الآن لم أقابل من يصف تلك الحالة كما تصفها أنت.

- أنا لا أصف حالة بل أنا أحيا الحالة، اعذريني أو لا تعذريني، فأنا عرفت فيك العشق، وحالي كحالك لم أكن أتصور أني سألتقي هذا العشق، ولكن الآن تراني أؤمن بأن أرواح العشاق التي سبقتنا عادت إلى هذه

الأرض، من روح قيس وليلى إلى روح روميو وجولييت، إلى كل العشاق الذين لم تتح لهم الحياة فرصة اللقاء.

- تقصد أن أرواحهم حلّت فينا؟

- لا أقصد، بل أنا على يقين، يد الطغاة وأعداء الحياة امتدت إليهم قبل اللقاء، فلم تتسن لهم فرصة الارتواء من الحب، فمات منهم الكثيرون شهداء الحب، لذا ترين روحهم تسافر في أرجاء الكون، تبحث عن توأم الروح، لتكمل مسيرة العشق الأولى.

ارتعشت روحها لكلامه، لم تكن تؤمن بالتقمص ولا بسفر الأرواح، ولا بعودتها إلى الأرض، ولكن لسبب ما لا تعرفه خضعت للفكرة، وراقت لها كثيرا، وأردفت قائلة:

- علها أرواح العشاق من ظُلموا قبلنا، فراحت أرواحهم ترفل بالحنين، تنشد قلبا تسكنه، تتغنى بالأشواق السامية، فنشوة العشق تلك لا تفقه معناها النفس البشرية العادية، بل هي لمحات من رموز وملامح صورة لتصوير الذات الإلهية، ونفخة الحياة التي أعطاها لآدم يوم خلقه من التراب، ونفخ فيه نسمة الحياة. إن الخالق

صنعه بيد المحبة، ونظر إليه بنظرة المحبة، وعطف عليه حين رآه وحيدا، فأوجد له حواء ضلعا من أضلاعه، وكانت جزءا من كيانه، تحيا بأنفاسه، وتحمل في مسام جسدها آدم وليدة صدره، هو الذي إليه بعد السقوط كان اشتياقها.

كان ينظر إلى مخارج الكلام من فمها بكل خضوع، كأنه في محضر صلاة في قداس، شاركت به الملائكة، وهي تتكلم عن العشق، تتكلم بلغة المفكرين والعاشقين، تتكلم بلغة سبت روحه معها، لا يجد الكلام الوافي لها، فتثور روحه بداخله، وتغشاه غيبوبة جمالية، ويشعر كأن روحه غادرت جسده، ورآها تعانق روحها فوق السحب، فوق هياكل بعلبك.

- أيها الغريب، تناديه حين رأت صمته، أين أنت؟

- نعم، يا جميلتي أنا لست هنا، لقد أخذتني كلماتك وألوانها إلى لوحة مكتملة الأركان، أراها بعين الحقيقة الأزلية المقدسة التي تحكي قصة العشق والروح والإنسان.

وماذا بعد؟ قالت مبتسمة:

- أراك كأنك غادرت المكان بروحك؟

- غادرت بروحي لألتقي روحك.

- وما الداعي من المغادرة، وأنا هنا معك، نرتشف النبيذ، ونصغي إلى الموسيقا؟

- هذا هو السر، نحن هنا ولسنا هنا، لأننا لسنا من هنا، ولكن علينا واجب إكمال ما بدأه الآخرون، ولم يستطيعوا إنهاءه.

- وما هو هذا الذي علينا إكماله؟ سألته متعجبة.

- العشق الارتباط الأزلي.

- الارتباط الأزلي؟!

سألته بدهشة، ولم تدعه يكمل، لا تريد أن تسبر ذلك العمق من جديد، عمق الارتباط وقد أثقلت كاهلها الارتباطات من قبل، فقط تريد أن تهنأ بهذه اللحظة وليدة الآن.

ابتسمت من أفكارها، ورد لها الابتسامة بابتسامته الساحرة، وهو يحدق في وجهها محاولا أن يروي ظمأ سني البعد عنها، وتعالت الموسيقا، وبدأ رواد المطعم في الرقص، وأهازيج السعادة تصدح في المكان.

- تانغو، كم أعشق هذه الرقصة.

- لا أتقنها جيدا، ولكن أعدك بأن أدوس قدميك بروية.

ضحكا معا، مد يده، أعطته يدها بحركة عفوية، وسارا معا إلى وسط الحلبة.

- إني مرتبكة كثيرا.

- اتركي ذاتك لي، واتبعي الموسيقا، وهي ستقودنا في خطوات الرقص،

وهكذا رقصا معا بخطوات ثابتة، ويده تحتضن يدها، والأخرى تحتضن خاصرتها، تنساب بين يديه متمايلة كأنها منذ نعومة أظفارها تمارس رقص التانغو. عادا إلى الطاولة بمزيد من النبيذ محدقا في عينيها.

- تثيرني عيناك، ونبرة صوتك لا أدري كيف ولماذا،

ولكن هناك شيء ما بداخلهما يشعرني بأني الرجل الوحيد في هذا العالم، وبأنك الأنثى الوحيدة.

- وهل هذا جيد أم سيئ؟

يبدو أن النبيذ أخذ منها مأخذه، لم تشعر بأي خجل أو ارتباك كما تعودت من قبل حين كان يخبرها عن رجولته وإثارته كلما تحدث إليها من نبرة صوتها حين كلمها مرات معدودة على اليد الواحدة، ففي ذلك الوقت شعرت أن الفكرة غريبة بعض الشيء، ولكن الآن ما دهاها؟ حتى نبرة صوته، نظراته، حضن يده تثير فيها رغبة ملحة في عناقه، فكلاهما في ذات القارب يطفوان معا على بحر العشق.

- جيد جدا، أعادها صوته إلى ذاتها وإليه، لم تثرني امرأة من قبل كما أنت، إلى درجة اعتقادي بأني مريض، وأن وقتي كرجل قد أزف، ولكن معك سامحيني، فأنا أشعر بمشاعر لم أعرف أني كنت سأعرفها، أو أشعر بها، لا أعرف كيف أُعبّر، فأنا مرتبك، حضورك طاغ، أعشق لفتتك حركاتك، خصلات شعرك، عنقك، أصابع

يدك كلما فكرت بك شعرت بالرجل الذي في داخلي يريد أن يفتك بك، كلك مثيرة، كلك تلك الأنثى التي طالما حلمت أن أقابلها، آسف إن كنت قد أحرجتك بالكلام.

- لا، لا أبدا.

- أنا تقريبا أعيش نفس الحالة، ليس تقريبا بل مؤكدا، الأنثى التي في داخلي لم يحركها رجل من قبل كما فعلت أنت، أو بالأحرى لم تعرف العشق كما عرفته معك، كياني من الداخل يريدك، يبحث عن سبب واحد يقنعني لماذا لم أقابلك من قبل، من قبلك كنت أعيش في ظلال الحياة، أما الآن فأنا أحيا الحياة، وأضافت:

- قبلك عندما كان يخيم الليل على المسكونة، كنت أعانق الوسادة، وأستعين بأنواع كثيرة من العقاقير كي تساعدني على النوم، أما الآن فأنا أحضن طيفك، أسترسل في خيالي، أسافر إليك، ألقاك، أمارس معك كل أنواع الحب والعشق والجنون.

- لا بد - يا حبيبتي- أن أمارس فنون العشق معك، أدور بجسدي حول محراب جسدك، كاهن يقدم الطاعة والقربان لهذا الجمال، لأنه جسدك أنت وروحك، وهذا ما يجعله بهذا العنفوان، إنها الطاقة التي تختبئ خلفه وتحركه، كم حلمت بأني أتفقده، أتذوق كل مسام به، وأقيس حرارته، والجهاز العصبي، ونوعية الاستقبال، إنه من قلة الأدب ألا أهبك الحب والاهتمام بكامل تفاصيلك، بكل جزء من أجزائك، أن أحبك بهذا التفصيل، وأسعدك هوما يجعلني سعيدا، أن أهبك ما تستحقين من التقدير هو ما يجعل قلبي راضيا وفرحا، لأنك تستحقين كل الحب الذي في هذا العالم، خفتت

الموسيقا، والأنوار بهتت بصعوبة يستطيع أن يرى أحدهما الآخر، موسيقا ناعمة، وبعض من رواد المطعم في باحة الرقص يرقصون، بدوا لهما كأنهم في عناق

طويل، حضن لا ينتهي، كم أرادت أن تكون في أحضانه في حلبة الرقص، شعر كأنه سمع أفكارها، فدعاها للرقص مجددا، لم تعترض، ولم تتكلم، ووجدت

ذاتها بين أحضانه، رأسها يستند إلى صدره، تسمع زفراته وأنين النبض، أغمضت عينيها، أرادت أن تجمع من عطر أنفاسه ما يكفيها لسنين قادمة، وما يعوضها عن أعوام مضت، قادها في خطوات هادئة يضع يده في يدها، والأخرى تلف خصرها يشدها إليه في سكون وصمت تام، وأنفاسه تداعب عنقها مما جعل توازنها يختل، فتترك ذاتها بين يديه في انصهار وذوبان عجيب، وكأن الكلام هنا انتهى، والأبجدية توقفت وتلعثمت في دوامة غريبة من نوعها، لا كلام يستطيع أن يعبر عما يخالج صدرها الصغير، ولا أبجدية تستطيع أن تصف ما يدور في خلدها وفكرها وروحها، شيء كبير، سعادة لا توصف، وفرح لا ينطق به.

أما هو فكان أشبه بمن امتلك العالم، وجمعه في كفيه وضمه إلى صدره، تمنى أن يتوقف عند هذه اللحظة

بالذات، فمنذ زمن طويل لم يشعر بهذه السعادة كما الآن.

- أشتاق إليك، أشتاق إليك في كل لحظة، لا يكفيني دهر لأرتوي منك، تنهدت روحها وهي تحكي بوح قلبها، بصوت أشبه بالهمس، وتطبع قبلة على عنقه تحت ذقنه.

- بل الحنين الذي يتملكني الآن لا يضاهيه حنين، ليته لا ينتهي هذا الليل، وليت الزمن يتوقف هنا، ليتني أملك طلسما وتعويذة ما، كي أستطيع السيطرة على العالم ومركبة الحياة لأوقفها هنا.

يداعب شعرها برقة، ويحتضن وجهها بيديه، طابعا قبلة خفيفة على شفتيها، كرزية الشفتين، شهد القبل، كوثر الحياة.

لم يشعرا بمضي الوقت، ولا توقّف الموسيقا، إلا عندما بادرهما أحد الموظفين بأنه آن أوان الإغلاق، أيقظهما من أجمل لحظات، حلم في أرض الواقع، لم يكن سواهما في باحة المطعم، اعتذرا، سارا نحو الطاولة، جمعا أغراضهما وتوجها إلى غرفتيهما، سار بجانبها، قلبها يرقص، وألف سؤال يدور في فكرها، وماذا بعد الآن؟ في ظل الظروف

التي هي بها، ماذا بعد هذا اللقاء؟ في الأمس كانت أرواحنا في عناق من بعيد، وأشواقنا كانت لهفةٌ، وشهقةٌ من العشق، والحنين كان أشبه بقصيدة وترنيمة حياة، لا نرتوى من تلاوتها، والآن كيف سأشفى منك بعد هذا اللقاء؟

محكمةٌ

بذنب العشقِ أعترفُ

كلما نظرْتُ إلى عينيهِ

آلافَ المعاصي أقترف



وصلت إلى باب حجرتها المجاورة لحجرته، توقفت عندالباب تبحث عن المفتاح، تريد الدخول، تريد أن تدعوه إلى الدخول؟ تريده معها هذه الليلة، تريده لذاتها، تريد أن ترتشف الحب من شفتيه، تتذوق شهد العشق بين أحضانه، تريد أن تقتص من زمن لم يكن فيه بحياتها، تريد وتريد، والنبض يتسارع في صدرها، وتعج أفكارها بالتناقضات، هل ترمي بعرض الحائط كل ما ربيت عليه من قيم وتقاليد، وأعراف ونواميس؟ هل ترتكب ذنب العشق؟ جلست قاضية في قاعة المحكمة، وفي الناحية الأخرى كانت محامية الدفاع، والمُدّعي العام، مهزلةٌ في لحظات، أصدرت الحكم، تربيتها تمنعها

والنواميس والتقاليد والأعراف، فتحت الباب، التفتت إليه، كل عشق العالم في عينيه، وأسمى معاني الحب في ابتسامة شفتيه.

- تصبح على خير.

- وأنت بخير، أراك غدا، ربما نذهب بجولة في الجبل إن كان لا مانع لديك.

- لا مانع، إلى اللقاء.

دخلت مسرعة، أغلقت الباب هربا من رغبتها فيه، وكأن شبحا يطاردها، جلست على حافة سريرها، وعاد المدعي العام يتبختر في رأسها، موجها لها شتى الاتهامات.

- الحب، أي حب تتكلمين عنه؟ أخبري هيئة المحلفين لو أدخلته إلى حجرتك، كيف ستواجهين نفسك بعد هذه الليلة إن كنت دعوته للدخول، وأنت تعلمين جيدا معنى دخوله، وحدكما بعد ليلة بصعوبة استطعت أن تقاوميه في باحة الرقص، والآن وحدكما، بأي وجه ستواجهين الآخرين؟ وماذا سيكون مصير كل

القيم التي تتحدثين عنها؟ كيف ستفلتين من قيود العرف، والتقليد، تتغنين بالحب والعشق، وتتغزلين بالروح التي جمعتكما؟ من قبل اللقاء هيأت الحياة لهذا اللقاء، والطبيعة رسمت خارطة هذا اللقاء، ما أغباك.
جلاد قاس أنت تخاطب ذاتها، كفي عني بالله عليك، يكفيني ما أعاني من ألم الكتمان، وألم الحرمان، وألم مجتمعات مريضة، كفى.. صرخت بصوت مسموع، ركضت إلى الحمام، حمام دافئ، لعله ينقذها مما هي فيه.

ملأت الحوض، خلعت ثيابها، توقفت قليلا مقابل المرآة، رمقت جسدها بنظرة احتقار، وشفقة، يبدو أنه لم يُكتب لجسدها أن يعانق جسده، ولم يكتب له أن يتذوق العشق كباقي البشر. استلقت في الماء الدافئ، والدموع تنهمر أحر من جمر موقد مشتعل في برد كانون القارص تلسع وجنتيها، لا تدري أتبكي فشلها أم تبكي جبنها؟
- أعشقه، يفصلني عنه حائط ، قطعتُ آلاف الأميال كي أكون معه، والآن يفصلني عنه حائط ، يا لهذا الغباء، يا لهذا الوجع، تُمسك هاتفها تُريد أن تتصل به

وتدعوه إلى مائدة الغرام، جسدها يئن ويحتضر تحت سطوة حبها ولهفتها إليه، ورائحة الرجولة في أنفاسه تثير كل مسام من مسامات جيدها، تنهشها الأنثى في داخلها ورغبتها فيه، الرغبة في عناق لا ينتهي، الرغبة في تذوق الحياة والموت في أحضانه، تود لو تستسلم لها طوعا، ولكنها تعيد التفكير، لا تريد أن تبدو مُبتذلة، ربما يكوّن فكرة مغلوطة عنها إن هي اتصلت، تنظر إلى هاتفها مجددا، ربما هو أرسل لها دعوة أو كلمة، لكن لا جديد، الهاتف يبدو هذه الليلة باردا جدا بل ميتا، قالت في نفسها: يا ساذجة، لعله يغط في نوم عميق، ليس لديه أدنى فكرة عما تعانينه الآن.

- تعالي نرقص على وقع العشق الآن، ولندع الخوف والحيرة والخيبة إلى أيام أخرى، الآن نحن معا، وغدا من يدري أين نكون؟ أناديك في هذا الليل الأصم، أدعو لك بليلة حميمة، أحن إليك، فأنت الأمان وأنت الرجاء، وأنت عشقي وشمسي في ليل الحياة، والقمر الذي ينير سماء وحشتي، وأنت الحلم في ليالي الوحدة، والشهاب الذي اخترقني وشطرني نصفين، أين أنت الآن؟

- كم أحمل إليك من العشق، كم انتظرت هذا اللقاء، يا من جعلت النجوم في قبضتي، وأنوار الفجر سواراً في معصمي، يا لحن الحياة وأنشودة الريح التي تحملني على أجنحة العشق المقدس، أيها الغريب القابع في ثنايا قلبي، والجاري في شريان دمي، اعذرني.. اعذرني جبن هو، هذا كل ما في الأمر، تخاطب صورة كان قد أعطاها إياها ساعة العشاء عندما سألته إن كان يحمل واحدة، أ تبكي أم تبتسم؟ كل ما فيه يدعوها إلى الفرح والألم، تناقض عجيب.

غصبت نفسها على النوم، بعد الحمام الدافئ، وكان نوما متقطعا.

أما هو فلم يغمض له جفن تلك الليلة، يفكر ويفكر، لم يشعل أي سيجارة، ولم يخلع ثيابه، ضجيج الروح فيه أنهكه، ورجولته ونعومة يديها تثير فيه الجنون، أحبها حتى الجنون، ذرع الغرفة ذهابا وإيابا حتى الصباح، الهاتف لم يرنّ، لا رسالة ولا كلمة.

قدرٌ ساخرٌ

أمصادفةٌ أنتَ أيّها التاريخُ؟

تعيدُ لي ذكرى جرحٍ مضى

أغلقي الأبوابَ وأوصدي المتاريسَ

فالذي كانَ سرابًا وسحابةَ صيفٍ مضى.



خرج مُسرعا كبركان ثائر من غرفته إلى خارج الفندق، كان صباحا مشرقا، كل شيء هادئ، الطبيعة رائعة.

ذلك الصباح والعصافير تملأ الشجر على جانبي الطريق، تمشى قليلا، كم يكره الحيرة، فهي مرض يتجنبه.

استيقظت بعد منتصف النهار، لهفة مستغربة لهذا النوم الطويل العميق، صداع مؤلم، رأسها يكاد أن ينفجر، نظرت إلى هاتفها، وجدت منه رسالة يقول فيها:

- صباح الخير جميلتي، أتمنى أن تكوني بأحسن حال،

وأن تكوني قد نمت جيدا، انتظرتك في مطعم الفندق لنتناول الإفطار معا، لم تأتي، فلم آكل، شربت فقط قهوة، كانت شديدة المرارة دونك، مؤكد أن ليلة أمس كانت طويلة، وقد أرهقك السفر

والسهر، لذا تأخرت في النوم، سأراك فيما بعد عندما تستيقظين.

- يا لغبائي، كيف لم أسمع الإشعار بالرسالة؟ بسرعة رتبت شعرها، تناولت مسكنا للألم، ارتدت ملابسها، خرجت، طرقت باب غرفته، لم تسمع أي إجابة، مرة ومرتين دون إجابة، قالت: لعله ينتظرها في باحة الفندق أو المطعم، لقد تعدت الساعة الثانية بعد الظهر، ربما هو الآن يتناول طعام الغداء، نزلت مهرولة إلى باحة الفندق تبحث، لا أثر له، سألت عنه في ردهة الاستقبال، لم يره أحد.

- جلست في المطعم تنتظره، طلبت قهوة ثم غداء، انتظرته ساعة، لم يظهر أحد،

أرسلت ردا على رسالته:

- صباح الخير، أنا حقا نمت أكثر من المعتاد، يبدو أن النبيذ تمكن مني قليلا، أنا في انتظارك في المطعم لنتغدى معا.

لم يصلها أي رد، وكأن أحدا لم ير الرسالة، الفيس بوك والإعدادات، ربما لم ير الرسالة، أرسلت له أخرى تقول:

- طمئني عليك، أرجو أن تكون بخير.

مضت ساعة كأنها دهر، دون إجابة ولا إشعار بأنه رأى الرسالة، احتارت ماذا تفعل، أين يكون في مثل هذا الوقت؟ ماذا دهاه؟

- لا بأس، للغائب حجته، أجابت حين سألها موظف الاستقبال إن هو أتى.

تركت مقعدها في المطعم، توجهت إلى الطريق العام، مشت قليلا، تريد أن تقضي

وقت الانتظار هذا بأسرع وقت ممكن، إنه أقرب إلى الاحتضار وقت مخاض، غضب وعتب ومشاعر كثيرة أخرى تفترسها من الداخل، تتوعد بأن توبخه بشدة

عندما يحضر، دارت في كل الشوارع، تبحث عنه في وجوه المارة، وفي واجهات المحلات وداخل المطاعم، حتى أدركها المساء، لم تصلها أي رسالة، حاولت الاتصال، مع الأسف ليس لديها أي رقم له سوى من خلال الفيس بوك، لا جواب.

قفلت عائدة تجر أذيال الخيبة والألم إلى الفندق، لم يأت، قال لها الموظف دون أن تسأله حتى، أجابت:

- هل فتحتم غرفته؟

- لا، فحجزه ينتهي غدا، عندها فقط نستطيع أن نفتح الغرفة إن لم يأت.

- حسنا أردفت قائلة، سأكون في غرفتي، أرجوك أن تعلمني حين يأتي.

هز رأسه بالإيجاب، وعلامات الشفقة على وجهه، وهو ينظر في عينيها الحزينتين.

شاءت الأقدار أن تتعرف إليه في ظروف قاسية، وأن تتعلق بحبه أكثر من ثلاث سنين تبادلا الحب في صمت مطبق، لم يكن حبا اعتباطيا، ولا نزوة جسد، بل

اجتمعت في ذلك الحب الأحلام مع العواطف الجياشة مع الأماني بلقاء في يوم من الأيام، ربما يتساءل البعض عن نوعية هذا الحب الصامت، وهذا العشق الجامح، لا جواب إلا أنها تلك الكيمياء التي مست روحيهما، وتأصلت في لقائهما، في مجتمع تحكمه التقاليد والعادات، بين الحرام والحلال، جعلت هذا الحب صامتا ومخفيا عن الأنظار، رغم تأججه يوما بعد يوم، لم تفارق الابتسامة شفتيها منذ أن عرفته، وهو اقتحم المستحيل ليعوض الغياب والبعد عنها،

يكتفيان بفتات الحب من خلال المراسلة فقط، تبثه مشاعرها، وتكتب له ما يخالجها، حتى صوته كان من النادر أن تسمعه.

تحيط حياتها بسرية تامة حوله، وتعتبره نعمة أنعمت بها السماء عليها في الهزيع الأخير من عمرها، قوامها وتقاطيع جسدها الممشوق في تناسق تام برغم السنين، ولها من جمال العينين ما جعل الكثيرين يغرمون بها، ولكن هي أرادت واحدا منهم فقط، واحدا

فقط هو نبض له القلب، وفتحت له الباب على مصراعيه.

غمرها فرح لا يوصف وهي تقضي الليالي تحلم به، فهو يختلف عن كل الرجال الذين عرفتهم من قبل، صديق حنون، وحبيب دافئ، وعاشق ولهان، شهم بكل شيء حتى في حبه وجنونه، ورجل بكل ما في الكلمة من معان، وهو رآها نقية الروح، ابنة الفطرة والطبيعة، سنبلة ذهبية لوحتها شمس الحياة، وألقتها على بيدرها،

نضجت قبل أوانها، وحصدها من لم يكن يستحقها، فلم تعرف معنى لحياتها إلا حين التقته، سحقتهما الحياة، لكنها غمرتهما بجمال الروح، فتآلفت أفكارهما، وتجانست والتقت روحاهما، وكان الحب قائما على كثير من التفاهم، متجانسين من أول لقاء، كان يقول لها دائما: " إما أن يكون هناك تفاهم أو لا يكون، طول السنين لا تساعد، والعشرة الطويلة لا تقرب النفوس إن كانت في الأصل بعيدة " ما أقرب روحه إليها في التوجع وفي الفرح، كان يشاطرها شتى أنواع المشاعر

والأحاسيس.

رمت نفسها على السرير تشهق بالبكاء الشديد، أين هو حبيب روحها؟ هل تركها بعد أن رآها؟ ذُعرت من الفكرة، نعم لم ينل مراده منها، لهذا تركها ورحل، غير آبه بمعاناتها، أناني أنت، صرخت، ولكن ما معنى الرسالة التي تركها لها؟ الآن عرفت بل تأكدت بأنها أحبته بكل ما أوتيت من قوة، وتراها كسيحة، لا تقوى على المسير، مشلولة الإرادة والتفكير، ما عليها سوى الانتظار، نعم ستنتظر، فلقد قاربت الساعة منتصف الليل، أغلقت عينيها تحاول النوم، ولكن أين له أن يأتي، يسدل الليل ستائره على الطبيعة، تستيقظ الأفكار في رأسها، يتدفق الشوق كنهر جارف، هذا ما عدا الظنون والشكوك، تبحث عن طريقة تُفسر بها هذا الغياب، ربما تجد العزاء أو العذر. ذاكرتها مثقلة بكل ما هو جميل منه، وشلالات الدموع تنهمر مرة أخرى، تلسع وجنتيها بسوط من لهب، حنجرتها جافة، لا كلمات تستطيع أن تعبر عن حجم الخيبة والألم، ربما الضغينة، لا لا.. بل العتب على هذا الرحيل المفاجئ.

ما أقسى ليل يمر على عيون امرأة عاشقة تتضور حبا في انتظار كلمة أو رسالة من حبيبها، غفت روحها المرهقة، وهي تمسك بالهاتف، كأنها منه تستمد حياتها، كم هي شديدة ومؤلمة لحظات الانتظار..

في ظلامِ الليلِ يأتي الحنينُ

وفِي غمرةِ السكونِ يبدأُ ضجيجُ الأشواقِ

مع كلِّ شهيقٍ وزفيرٍ أتمتمُ باسمكَ

ومعَ كلِّ رشفةِ حياةٍ أنتظركَ

سأرسمُ من حفيفِ الشجرِ لكَ طريقاً

سوفَ أوقدُ سراجَ أناملي لأنيرَ الدّربَ إليّ

أداوي بأملِ اللقاءِ عقاربَ الوقتِ

وأشرّعُ نوافذَ الليلِ لعقرِ أحلامي

نعم، وعدًا.. سأنتظركَ....



كابوسٌ آخرُ

أيها المساءُ الذي عبرَ بي يومًا
وتركَ روحي معلّقةً
ما بينَ سحابِ الأيامِ والشّفقِ الأحمرِ
أيها المساءُ
يا من سرقتَ روحي
متى تعيدُها إليّ؟



لم تعرف كيف غفت عيناها، ولكنها استيقظت مفزوعة من حلم بدا لها كأنه كابوس، لم تتذكر منه أي شيء، نظرت إلى هاتفها، لا جديد، ارتدت ملابسها بسرعة، ركضت نحو غرفته، قرعت الباب بهدوء، لا مُجيب، لا شيء، نزلت بخطى هستيرية نحو بهو الفندق، ألقت نظرة سريعة على المكان، لم تره في أي ركن، توجهت إلى موظف الاستقبال، سألت إن كان قد رآه.

- لا يا سيدتي، آخر مرة رأيته كان بالأمس.

- بالأمس.. أي ساعة؟

- لقد كانت حوالي الساعة الواحدة ربما، نعم الواحدة، وأنا متوجه إلى منزلي.

- أين رأيته؟ سألت بلهفة.

- لقد كان يتمشى خارج الفندق، يبحث عن سيارة أجرة، فأخذته معي إلى السوق.

- ألم يقل أي شيء، أين يريد الذهاب مثلا؟

- لا، يا سيدتي، وأنا لم أسأله، لكنه بدا لي تعبا، كأنه لم ينم الليل بطوله.

- شكرا لك.

- لا شكر على واجب، أجابها وهي تهم بالسير نحو الباب.

- اليوم قالوا لي إنكم تستطيعون أن تتفقدوا غرفته، هل تفقدها أحد ما أم بعد؟

- لا يا سيدتي، ولكن الآن أستطيع أن أرسل أحدا ليتفقدها، لقد مر وقت الحجز الآن.

- هل أستطيع أن أدخلها؟

- أجل، لحظة.

نادى أحد العاملين، وأعطاه المفتاح الإضافي، ورافقته إلى الغرفة، قلبها يكاد أن يقفز من مكانه، وهي تسير مع الموظف، تريد أن تستعجله، اللحظات بدت لها دهرا، فتح الباب، دخلت وألقت نظرة على المكان، غطاء السرير لم يُكشف، وكأن أحدا لم يستخدمه، ربما هناك من استلقى عليه من فوق، حقيبة صغيرة في الزاوية، منشفة على الكرسي المجاور للحمام، زجاجة عطر على الطاولة، دخلت الحمام، فتحت

الخزائن، كأنها ترجو أن تجده داخلها، تدور وتدور لا تعرف ماذا تريد من الغرفة، أرادت أن تصرخ وترتمي على السرير، كان هنا ليلة أمس، لماذا لم تأت إليه، مع أن روحها كانت تناجيه وتطلبه، لماذا لم تصغ لقلبها العاشق، وثورة جسدها، لماذا تركت كبرياءها تمنعها من أن تنعُم في حضنه ولو لليلة واحدة، نعم إنه جنون،

كل شيء في الغرفة يقول: إنه لم يهرب، هكذا خُيل إليها، أو ربما هكذا أرادت أن تقنع ذاتها.

- ماذا ستفعلون بالأغراض هذه حين يرحل زبون هكذا فجأة ويتركها خلفه؟

- نستودعها الأمانات.

- حتى متى؟

- لا أعرف.

- شكرا.

همت بالخروج، وعادت تسأل من المسؤول عن الأمانات؟

- الموظف الذي أرسلني إلى هنا.

تركت الغرفة إلى بهو الفندق، سألت الموظف عن الأشياء المتروكة، قال لها: ستبقى لمدة أسبوع، وإن لم يظهر صاحبها فسيتصرفون بها، شكرته، تركت الفندق مرة أخرى، وتوجهت سيرا على الأقدام إلى باحة القرية. من جديد راحت تفتش بين المارة، وفي داخلها صراع مرير

بين كبريائها وروحها، وما بين قلبها وعقلها، تقنع ذاتها بأنه ما زال يُحبها، ولم يهرب منها، ومن جهة أخرى الشك يقتلها، ويُخاطبها بسخرية، تعقلي وانظري حولك أين هو؟

لا أيها العقل، اصغ جيدا إلى قلبي، لم يهرب، أنا أعرف ضربات قلبي، وأعرف من اختار، ترأف بي أيها القلب، من شغل قلبي يتعالى فوق المنطق وأرفع من الشكوك.

قضت نهارها كله في الدوران بلا نتيجة، إن أرادت أن تسأل عنه فمن تسأل، فهو غريب مثلها في بلاد غريبة، لا يعرفهما أحد، أليس هذا هو ما أرادت أن تلتقيه بعيدا عن عيون البشر الفضولية، في مكان لا يعرفهما به أحد، أرادت ألا يشاركها به أحد حتى الأماكن والمعارف، أرادته لها وحدها، وها هي الآن تحصد نتيجة الاختيار، تُرى أين أنت أيها الغريب؟ وتعود بها الأفكار حين سألته عن اسمه.

- سميني غريب، أجابها مبتسما.

- غريب، ولماذا اخترت هذا الاسم أيها الغريب؟

- لأني فعلا غريب، فأنا تغربت منذ نعومة أظفاري عن أهلي، وفي وطني كنت غريبا، كبرت وأنا غريب حتى في فترة تعليمي، لم أثبت في مكان، كنت دائما غريبا، حتى في انتمائي السياسي والاجتماعي أنا غريب، لا أملك أي حق من حقوق المواطنة، ولا حتى في عملي وحياتي، أشعر كأني غريب حتى عن هذا العالم.

كل ما أملكه موجود في حقيبة السفر، وهي جاهزة دائما للرحيل.

- جميل جدا أيها الغريب، يليق بك الاسم.

- وأنت يليق بك العشق.

اسمه غريب، وها هو الآن متغرب في حنايا صدرها، ومتغرب في هذا العالم دون حقيبة السفر التي تركها خلفه في الفندق.

- أين أزف بك الرحيل هذه المرة؟ أ تغربت بإرادتك أم كان غصبا عنك؟ أين أنت يا تُرى؟ عادت تسأل صورته، وهي في طريق العودة إلى الفندق.

نزفت روحها، وهي تسير في الشوارع، أرهقها الطريق، وكأنه حلم تعيشه بل كابوس، دخلت الفندق، لم تسأل عنه، الكل يعلم أنها تفتش عنه.

دخلت غرفتها منهكة، جلست قرب النافذة، الليل كان قد أسدل أجنحته، والهدوء خيم على المكان ما عدا ضجيج بعض السيارات، ترقب الطريق من خلف نافذتها، في يدها كأس من النبيذ، تريد أن تنسى، أن تخفف من ألمها، ولكن كأن النبيذ يوقظ الحنين بداخلها، ويفتح نافذة الشوق على هيئة دموع، بكت وانتحبت حتى التعب، احتضنت الوسادة، وعلى شفتيها اسمٌ واحدٌ تلفظه، وطيفٌ واحدٌ يسيطر على كيانها.

مرت الأيام بطيئة جدا، يوم واثنان وثلاثة، ولم تسمع أي خبر، وكما في كل يوم لم تبرح الفندق في الأيام الثلاثة الماضية، تحاول ألا تصاب بالجنون وهي في الانتظار، حتى خُيل إليها في بعض المرات أنها لم تره قط بل كل هذا كان وليد أحلامها أو قصة من اختراع مخيلتها، قصة كباقي القصص التي تقرأ عنها.

أشياءُ وذكرى

ما بينَ مرفأٍ ومرفأٍ

هناكَ قصّةٌ وهناكَ مقعدٌ خالِ

وهناكَ ذكرى وهناكَ دمعةٌ انسكبَتْ



مضى الأسبوع، انتهت إجازتها، بصدر مثقل بشتى أنواع العذاب والظنون والألم، حملت ذاتها إلى بهو الفندق، دفعت ما كان مترتبا عليها، وسألت بخجل عنه.

- لا يا سيدتي، لا جديد، ولا حتى اتصال.

- هل إيجار غرفته مدفوع؟

- نعم، لقد دفع سلفا لليلتين.

- حسنا، وماذا عن الأغراض؟ لقد مر أسبوع.

- أجل، لا شيء يستحق أن نحتفظ به، قاطعته قائلة:

- هل تأذن لي بالاحتفاظ بها؟

- أجل، لا مانع لدينا.

ذهب لدقيقة وعاد يحمل المحفظة الصغيرة وسلمها إياها، آه منك أيها الوجع، تهاجمني بأكثر حنكة في كل مرة، ألم تكتف بأسبوع، سحقتني سحقا، جعلتني أضحوكة، أيها الوجع غض عني الطرف. نظرت إلى هاتفها الذي تفحصته للمرة الألف منذ أن اختفى، لا جديد، لا رسائل، أرادت أن تكسره، ولكنه الوسيلة الوحيدة للاتصال به، تبا للبعد، مرة أخرى تعود بها الذاكرة إليه، ومن غيره قائل لها:

- اليوم أنا في حالة قلق، أشتاق إليك، ولا أستطيع أن أرتوي منك.

- معك حق، لا تنكأ لي الجروح، فبيني وبين الانهيار شعرة، فأنا على شفير الجنون.

- وما السبب يا جميلتي؟

- تسألني عن السبب؟ ما أغربك.. أين أنت الآن؟ أنا في أشد الاحتياج لك، أتضور كلبوة لم تأكل منذ

شهر، جائعة وعطشى لك، هل تعلم أنك الشخص الوحيد في حياتي كلها الذي قلت له: أنا أحتاجك، أنا أريدك، وقلت لك: إني أغار عليك بهستيريا.

- وغدا ستجوعين أكثر، وسنعطش أكثر، لهذا الشوق وهذا العشق.

- أيها الصبر، أين أنت مني؟

- معك تعلمت الصبر، ومعك فقط عرفت ماذا أريد من هذه الحياة.

- ماذا تريد من الحياة؟

- أولا أنت، وثانيا وثالثا أنت، ورابعا وإلى المليون أنت.

- الى ما لا نهاية أنت.

- كلما هب الحنين وهاجمني الشوق قبلت خاتمي هذا Infinity

الذي يرمز إليك، فأنا أخفيك عن عيون كل البشر فيه، أمام ناظري، في الليل تأتيني أحلامي بك، أجملها حين ألقاك في أحلامي.

تحاول أن تُحصى عدد الشجر المتسارع وهي في طريقها إلى المطار، علها تبعد أفكارها عنه، لكن دون جدوى،

كل شيء يذكرها به، اووف- ت، هذا كثير.. كثير جدا.

محفظته إلى جانبها على المقعد في باحة الانتظار في المطار، فتحتها بتأنّ، وراحت تفتش بداخلها حتى عثرت على زجاجة العطر، زجاجة مليئة تقريبا، رشت قليلا منها على معصم يدها، وراحت تشمه.

- كم أنت جميل أيها الغريب، كم أشتهيك، وكم أشتاق إليك، الآن أريد أن أشكوك، ولكن لمن أشكو؟ في الأمس القريب حين كانت الأيام تعاكسني، حتى عندما كنت غضبى لغيابك، كنت أنت الصدر الحنون الذي أشكو منه إليه.

- مهزلة نحن يا جميلتي، إن تخاصمنا يوما فلمن سنشكو؟ مهزلة، لا يوجد أحد، وأردف قائلا: أحيانا كثيرة أردت أن أخبر العالم بأسره عنك، وأقول له: نعم

أنا حبيبها، أنا من يسكن حروفها، أنا من يحبها حتى الهذيان، أنا من أدمنته وأدمنها.

- ومن يمنعك؟

- يمنعني الذي يمنعك.

ضحكت، وقالت:

- يمنعني عنك الظرف والمكان والحالة الاجتماعية التي نحن متورطون بها.

- أريد أن أخبر العالم: كم أنا محظوظ، وسعيد أنك حبيبتي.

- أريد أن أخبر البشرية كلها أنك العشق الوحيد الأوحد الذي احتلني، واحتل تفاصيل كياني، ولامست روحه روحي، أنك الوحيد الذي أناديه: يا أنا، الوحيد الذي حرك الأنثى في داخلي، تلك التي ماتت منذ زمن.

- كما أنك أنت أيقظتني، وأيقظت الرجل بي، بالنسبة لي كل النساء متشابهات، لم تشدني إحداهن، ولكن أمامك أنت أجدك الحياة.

- يعني حبك لي كان بقرار؟

- حبي لك كان قرارا اتخذته من عقلي قبل قلبي، لأن قلبي ممكن أن يخدعني، ولكن عقلي لن يخدعني، لقد كنت في فكري من قبل أن أقابلك، صورة انتظرتها كثيرا إلى أن تملكني اليأس، وفقدت الأمل أن أجده.

بين الفينة والأخرى كانت تتفقد هاتفها، لعلها تجد منه رسالة، لا جديد، اتصلت بالفندق للمرة الأخيرة قبل الإقلاع، لا سيدتي، لا جديد.

في الطائرةِ

ما ضرّكَ لو استلفتُ منكَ ذكرى

وتركتَني في لغطِ الانكسارِ

في طيِّ السنينَ أسيرُ إلى منفى الأنينِ



بعد إقلاع الطائرة بقليل أحست بأنها تختنق، حاولت عبثا أن تهدأ، أنا أختنق همست للجالس إلى جانبها، طلب المضيفة، بسرعة أتت.

- ماذا يا سيدتي؟

- هل هذه المرة الأولى التي تسافرين بها؟

- لا.

أجابت وهي تكاد تلفظ الروح، أو هكذا خُيل إليها، طلبوا لوهناك أي طبيب ونقلوها إلى حجرات الدرجة الأولى بعيدا عن أنظار المسافرين، حدث أن كان هناك طبيب مسافر على متن الطائرة، أتى مسرعا وتفحص

النبض والضغط، وقال: لا أرى أيّ شيء سيئ، ربما هي نوبة اضطراب وخوف، أغمضت عينيها وهي تسمع الطبيب يتحدث إلى المضيفة، قالت بصوت يكاد يُسمع:

- هل لديك أي مهدئ أو منوم أيها الطبيب؟

- لا.. لا أحمل معي أي شيء، نعم كنت أشك أنها نوبة عصبية، لا بأس عليك.

- شكرا لك.

- لدينا بعض الأدوية، سوف أحضرها لك، وترى ماذا يمكن أن تعطيها،

هز الطبيب رأسه، وقال:

- سأبقى إلى جانبها أنتظرك.

في الخمسين من العمر كما يبدو، أسمر البشرة يحمل ملامح جادة، ولكنها سموحة، بين الفينة والأخرى ينظر إليها بعين فاحصة، يسألها كيف الحال الآن؟ لا بأس، تجاوبه.

- ممكن أن أسألك سؤالا، وإن أردت فلا تجيبي.

- تفضل، همست.

- تمرين بأزمة ما، عاطفية ربما؟

اغرورقت عيناها بالدموع، وانحدرت على وجنتيها، هل هي شفافة لهذه الدرجة؟

- لا تجيبي سيدتي، ما اسمك؟

- ريتا.

- حسنا ريتا، ارتاحي الآن، هذا الدواء سوف يساعدك قليلا على الاسترخاء، سأعود إلى مقعدي الآن

كي لا أزعجك.

أمسكت طرف قميصه قائلة:

- لا بل ابق، أريدك إلى جانبي لو سمحت. نظر إلى المضيفة، قالت: لا بأس، ابق معها فالدرجة الأولى اليوم، ولحسن حظكم شبه خالية، ولكن أرجو أن تحافظوا على الهدوء قدر المستطاع.

- أجل، طبعا أجاب الطبيب، وجلس في المقعد المجاور وعيناه مثبتتان على المرأة التي هزتها ربما صدمة

عاطفية جعلتها تفقد توازنها، وتفقد السيطرة على نفسها، وهي تغط في نوم عميق بعد أن أخذ الدواء مأخذه.

استيقظت بعد منتصف الرحلة تقريبا، فتحت عينيها لترى أن الطبيب ما زال يجلس هناك مغمضا عينيه، أرادت أن تشكره، استوت في مقعدها، ولكنها لبثت صامتة، وها هي الآن بدورها تتأمله، لقد أرسل إليها في وقتها العصيب.

- شكرا، لك أتعبتك معي، بصعوبة همست بصوت خافت، كي لا تزعج الآخرين.

- لا داعي للشكر، فأنا طبيب، ومهمتي أن أكشف على المرضى.

- ولكني لست مريضة.

- أعلم أنك لا تشكين من أي ألم عضوي، ولكن ما تشكين منه أصعب وأقسى.

أشاحت بنظرها بعيدا تحاول أن تهرب من ذاكرتها الصاخبة، تنهدت، وقالت:

- نعم أقسى وأصعب.

علت ضجة المضيفة التي تقدم طعام العشاء.

- كيف حال مريضتنا الجميلة الآن؟ أعتقد أن بعض الطعام سوف يحسن الحال، ألا توافق على الرأي حضرة الدكتور؟

- بالطبع أوافق على الرأي.

- وأنت أيضا أيها الطبيب شكرا على ما قدمته لنا هنا مبتسمة.

- شكرا لك، لم أعمل سوى واجبي الطبي. قدمت المضيفة الطعام وتركتهما، عاد الطبيب إليها قائلا:

- بعض الطعام مفيد لك الآن، أيضا الكلام ينفع، أنا هنا طبيب، واجبي أن أسمع.

- وكم ستحاسبني؟

- أرى أن لديك روح الدعابة، وهذا جيد جدا، لا تقلقي اليوم الكشف مجاني.

- بعض الأوقات يا دكتور سبب الضحك هو الكم الهائل من البؤس أو اليأس نهرب إما إلى الخيال أو إلى الضحك.

- أي: شر البلية ما يضحك كما يقولون، هذا ما أفهم من كلامك.

- أجل، بالضبط.

- ريتا الجميلة، اسمحي لي أن أقول هذا، فالممرضة هي البادئة، ما الذي وصل بك لهذه الحال؟

- الحياة يا دكتور، إن كنت أنا جميلة كما قال درويش الجميلات هن الضعيفات.

- بل هن القويات، وهن جارات قوس قزح.

- وهن الوحيدات، وهن البعيدات.

- وهن نبيذ معتق، أليس هذا ما قاله درويش أيضاً

- أرى أنك مطلع على شعر درويش وأنت طبيب، أرادت أن تبعده عن موضوع الكلام والبوح، فهي لا تريده أن يعلم ما تعانيه، كيف تفضح أمرها، يكفي ما يعرفه

حتى الآن، وهو أيضا غريب، رفعت يدها تحتضن خاتمها، وبحركة عفوية تقبله.

- وهل في هذا عيب؟ إذن أيتها الجميلة، لنبدأ من أول السطر، كما قلت الكلام يفيد خاصة وأنا أرى غيمة من الحزن عبرت في وجهك، وأنت تقبلين الخاتم.
- لقد كلّ مني الكلام أيها الطبيب، صدقني ليس هناك ما يقال.

- لن أتطفل وأسأل، ولكني أرى أن ما تمرين به ينبغي أن يُعالج بأسرع وقت خاصة أن التأثير النفسي أصبح عضويا.

- شكرا لك على اهتمامك، لن أزعجك وأنت تأكل.

- لا، بل الحديث جميل مع الأكل.

ابتسمت، عنده روح مرحة، أحسنت بسؤاله البقاء إلى جانبها فهو يبعد عنها شبح الغريب الذي يطاردها ويؤلمها، تؤرقها ذكرياتها معه، أسواق المدينة، رائحة الطعام، ورائحة القهوة والعصافير المهاجرة، ضياع

يُريكها، هو كان وطنها ومفتاح قلبها، كيف تفتح القلب وقد ضاع منها المفتاح؟

- ربما مع القهوة ابتسم قائلا: إن أنت لم تتكلمي فعندي الكثير من الكلام، ما رأيك؟

- حسنا، سأصغي، ولكن الدفع مسبقا.

ضحكا معا واحتسيا القهوة وهو يتكلم عن عمله وعن بلده التي هجرها بعد حوالي عشرين سنة بسبب الحرب، الحرب شتتت الكثيرين، وهي منهم وإن كان بطريقة غير مباشرة، ولكن الحرب هجرت أقرب الناس إليها والكثير من الأصدقاء عرفتهم بسبب الحرب، لعنة من السماء على الأرض أردف الطبيب قائلا:

- كلنا لنا قصة وحكاية مع الحرب، من قريب أو من بعيد.

- أجل، حين عدت إلى وطني لم أجد إلا رُكاما وحطاما، وأنقاضا. حزنت كثيرا، لم أستطع احتمال رؤية الأماكن التي أحببتها، وترعرعت فيها، كلها دمار وخراب

- صعب على الإنسان أن يرى الدمار، ولا تحزن روحه.

- ريتا، ماذا يحزن روحك؟

- رياح الحياة أيها الطبيب، أسيرة العشق، أواخر الليل تمر في بالي أطياف إنسان، كل شيء هو بالنسبة لي، كان يزرع حدائقي وردا وألوانا حين أتحدث إليه، أميال كانت تفصلنا، ولكن الحب بهيبته جمعنا، صار العشق قضية حياة وموت لكلينا.

- وماذا بعد؟

- قررنا اللقاء، أردنا أن نعرف بعضنا قبل أن تمضي بنا فصول العمر، سافرت عائدة إلى الوطن، اخترنا بقعة لا يعرفنا بها أحد، وكان اللقاء أشد حميمية مما توقعنا، وضحكت الحياة بملء الفم أمامنا، وكانت ليلة من ليالي العمر،

غصت الكلمات في حلقها، وتوقفت لتلتقط أنفاسها، وتمسح دمعة على وجنتيها.

- يشدني إليه الحياة التي عرفتها معه، في اليوم التالي استيقظت على رسالة منه، يقول: إنه سوف

يقابلني بعد الظهر، وإنه انتظرني طوال الصباح، وأنا كنت نائمة، ذهبت أفتش عنه، لكن لم أجده، لم يعد للفندق لمدة أسبوع، أغراضه في غرفته، لم يعد، ولم يعرف أحد عنه شيئا، آخر من رآه كان قد أوصله بسيارته إلى باحة القرية.

- أشياؤه كانت في غرفته تقولين؟

- نعم.

- يعني لم يترك بإرادته هذا ما أعتقد، طالما لم يأخذ أشياءه.

- يقتلني الشك ويُثقل كاهلي، لا أعرف بما أفكر، أنا أكره الجبن، لم أجد أي تفسير لتصرفه، لم يبدر منه أي بادرة حين قابلته تنم عن أنه جبان، لم أشك أبدا بمصداقيته.

كان يصغي إليها بكل اهتمام، يهز الرأس أحيانا بالقبول والموافقة، ولكنه بدا مستغربا مما يسمع.

- سؤالي هنا خاص جدا، لكن أرجو أن تعذريني، تقولين إن كل منكما كانت له غرفة منفصلة عن

الآخر؟

- أجل يا دكتور، لم يحصل أي شيء من هذا القبيل الذي تفكر به.

- اعذريني، فأنا أحاول أن أربط الأشياء ليس أكثر، لم يهرب، أنا متيقن أنه لم يهرب بل من المؤكد أنه حدث شيء ما فوق طاقته يا سيدتي.

- كيف لك أن تكون على يقين؟

- أنا طبيب، وقد درست الطبيعة البشرية، وعندي إلمام بالحب بعض الشيء، إضافة إلى من يلتقي بامرأة مثلك ويتركها هكذا يكون على قدر كبير من الجنون.

- هذه مجاملة، أشكرك عليها.

لا شكر، سيدتي، أتمنى أن يكون بخير وتطمئني عليه، ولكن إلى ذلك الوقت أرجو أن تهتمي بنفسك، لا يجوز أن يعود، ويجدك بهذا الشحوب والحزن.

- لقد طارت عصافير الفرح من صدري، وهجرني الأمل، أشعر أني في منفى حقير في ذل وهوان، لقد تجردت حياتي من كل شيء مُفرح، وهجرتني البهجة،

أصبحت عارية كالشجر في أيام تشرين، لقد جردتني الحياة من شريان الحياة حين اختفى مني، كان المطر المنهمر على صحرائي، إنه أغلى من حياتي، لا نفع للحياة من بعده، العشرة غالية جدا جدا، وحبه وعشقه أغلى لا يقدّر بثمن.

شهقت بالبكاء من جديد تحاول أن تخفي الدمع بكفيها، ولكن عبثا، آسف قال الطبيب، أشاحت بيدها بما معناه لا تهتم، سكب لها كأس ماء، وأعطاها إياه، شكرته، كرر أسفه، ولكنها لم تجب هذه المرة بل خلدت إلى صمتها، كأنها في عالم آخر.

- هل أنت بخير؟

- لا تقلق، فقط أريد أن أجمع أشتاتي قليلا، فأنا لم أتعود الشكوى للآخرين أبدا.

- حسنا، سأدعك وشأنك قليلا، وآسف مرة أخرى.

احتست من الوجع ما يكفي أعواما، أطلقت آهة مكتومة، حاولت أن تشغل ذاتها بالتلفزيون الذي أمامها، لتشاهد فيلما أو تسمع موسيقا.

- يا ترى أين هو الآن؟ هل حقا كان فوق إرادتك أن تغيب هكذا؟ تُرى هل تشعر بأنين روحي كما كنت سابقا، كنت تسمعني أناديك من خلف المسافات، هل تشتاق إلي؟ لا أعرف كيف أتصرف الآن في غيابك؟ لن أندم أني عرفتك، ولن أنساك، هذا وعد.

عودةٌ بعدَ خيبةٍ

أثقلني الرّحيلُ وأنهكني الانتظارُ

تعبَتْ قدماي من حرّ السفرِ

جفتْ شفاهي

وكسرني الشّغفُ



لملمت شتات أفكارها، جمعت أشياءها ومحفظتها حين هبطت الطائرة في المطار، ألقت نظرة على هاتفها، لترى هل هناك رسائل، لا شيء، تنهدت وتمتمت: أراك بخير، أخذت حقائبها وعزمت أن تتماسك وتتظاهر بالسعادة، لقد أتقنت دورها جيدا.

عادت إلى حيث من المفترض أن يكون منزلها، ومن المفروض أن تشعر بالأمن والأمان، ولكن عبثا تقنع ذاتها، ففي الليل تنام الكبرياء، ويستيقظ الحنين، ويتسلل إلى قلبها ينهشه نهشا، مثل ذئب مفترس، عادت وهي تجر

أذيال الخيبة والألم خلفها، تشرب من يد الألم فوق طاقتها من رماد الذكريات.

- ترجل أيها الحزن المنمق عن أكتافي، لقد تعبت، وتعبت الأيام مني، مرت قرابة الشهر الآن، ولم تعرف أي شيء، لا جواب على رسائلها، اتصلت مرتين بالفندق، لم يظهر هناك أيضا، كادت أن تفقد الأمل، وفي كل مرة كانت تتسلح بالذكرى، حاولت أن تنساه، لكن كيف لها ذلك وهو يجري في دمها، زجاجة عطره أصبحت رفيقتها، منها تستجدي أنفاس الحياة لتحيا، أما القميص الأزرق الذي كان في حقيبته فخبأته في مأمن تلجأ إليه كلما اجتاحها الحنين تحتضنه طويلا، رائحته ما زالت عالقة في القميص، وفي ذاكرة جسدها وقلبها وعقلها، لقد أصبح الدفء الوحيد في لياليها الباردة الطويلة، وربيع الأرض في شتاء حياتها الخامل، يا له من جنون.

تتصفح تلفونها أكثر من الأخبار المحلية، تنتظر بلهفة رسائله، صرعها اليأس أسبوعا، فلازمت الفراش،

ترفض أن تزور الطبيب، وحيدة في صومعتها. مر شهران ، وما زالت تتعلق بحبال الأمل، وتراجع كلام طبيب الطائرة في ذاكرتها، لم يهرب بل هناك شيء ما حدث له.

تبا، ما هو هذا الشيء، هل مات؟

صعقت للفكرة، ارتمت على سريرها، لم تذكره من قبل في صلواتها، الآن رفعت عينيها، وقالت: احمه، يا رب، ليس من أجلي بل من أجله.

كانت ليلة من ليالي تشرين، بداية البرد، والشجر يخلع أوراقه أمام الريح الجافة، كما حياتها العارية من كل أنواع الفرح، يسودها الجفاف والوجع، أدركتها شمس الصباح وهي تجلس أمام نافذتها، حيث تنام على الأريكة خلف النافذة، وكأنها تنتظر حضوره، متسربا إليها من بين قضبان الزمن ، كانت الشمس ترسل أشعتها خجولة ذلك الصباح، بحركة آلية قامت، غلت القهوة، فتحت جهاز التلفاز، سكبت أول فنجان.
- اسكبي لي فنجانا من القهوة، أريد أن أشربها معك، لا

تنسي.

كلماته ترن في أذنيها، ترى وجهه أمامها يتراقص في فنجان القهوة، تبتسم للذكرى.

- سأغزو القمر، وأفتعل الأحداث، وأكون مهرجا لأرى تلك الابتسامة على ثغرك.

تتأوه على فراش الشوق المر كالحنظل، تحملها أجنحة الرؤى والذكرى مرة أخرى إلى كلمات طالما جمعت بين روحيهما حين لم تكن تعرفه إلا من خلال تلك النافذة الباردة، وكأن تلك الكلمات الآن هي المهرب الوحيد لروحها، والملجأ الذي تهرب كي يخفف من وطأة معاناتها، فكانت تبتسم وسط الألم، وتغرق بين روحها والذكرى.

- كلامُ الغزلِ كاذبٌ أمامَ صدقِ جمالك

يا امرأةَ العهدِ السابقِ واللاحقِ

الفؤادُ يريدُ قبلة الحياةِ على ثغركِ الملتهبِ

ويرتقي صدركِ كي يسمعَ الحبّ

ويذوبَ في حرارةِ ذراعيكِ

- أمامكَ أجدُ ذاتي طفلة

تريدُ أن تركضَ لأحضانك

تمسحُ دمعَها الدفاقَ

وتُروي عطشَ قلبها من خمرةِ ثغرك الرقراق

أقولُ بملءِ الفمِ: لطفولتي بينَ أحضانِك أشتاقُ

ما عدتُ أنهلُ غيرَ ما يرويني

من كلامِ حبك وثغرك يرويني

من سيحررني من نارِ عشقك وأشواقي وأنيني

كيفَ لسجينٍ أن يهوى سجانَهُ

وكيفَ لعصفورٍ أن يعشقَ قضبانهُ

كيفَ لي أن أهربَ من عشقك

وأنتهي بك في الأحضانِ

وأكتبك في تفاصيل الأزمانِ

وأغوصُ في مشاعرك حنوا سفينة بلا قبطان

فحبك علمني الهوى، وعشقتُ بك العمرَ الولهان

الحبُّ قصةٌ من قصصِ الأنسِ والجان

قصةٌ كتبتها الأيامُ مليئةً بالأحزان.

قصةُ عاشقٍ جاءني من خلفِ المسافاتِ والأزمان

فارتميتُ أغرفُ من حبه، وأنعمُ بدفءِ الأحضان شهدٌ بريٌّ لحبٍّ سرمديٍّ عفويٍّ

لماذا تريدُ بعدَ أن ابتسمتْ لي الحياةُ أن تبكيني ولماذا تريدُ بعد أن زار الفرحُ داري ببعدك تُشقيني؟

والحروف أيها الحبيب عندها تخرج لتفضح ما في القلب من أسرار الحب، صارخة:

أيا عاشقين، ما الذنب الذي اقترفته الكلمات لتخط بالدم ما لم تستطع الشفاه أن تبوح به

إنّ نبضاتِ قلبي تسمعُ نبضاتِ قلبك فتشجيني وقربُ الشفاهِ بالقبلاتِ حاضنة

تقربُ المسافاتِ وأسيرا لعشقك تسبيني

وعندها أقول لك الحبّ كلاما

- ألا تسمع القلب ونبضه ينادي

من تربع على عرشه وسكن الفؤاد

ألا تفقه معنى الكلماتِ التي بالحبّ والشوقِ للأحضانِ تواقة

هاتي الشفاهَ ولنرتو عشقا، ومن الهوى لا نكتفي، على روحي يا روحي أشفقي

وشعري كم انتحبَ شوقا لأناملك

وكم ضفائري صرختْ أنينا وأنا أقصها باسمك

وكم عانت روحي، وكم ارتعشت أوصالي لملامستك..

رسالةٌ غيرُ متوقعةٍ

ما العشقُ إن لم يزدنْ بقلائد الحنين

وعناقيدِ اللهفةِ وأساورِ الشغفِ

صوتُك يأتيني من البعيدِ

يترددُ في جوفِ روحي فأحيا



- تركت لي الأشياء الجميلة أذكرك بها، قلبت فنجان القهوة قليلا، وبدأت بقراءته، أفٍّ، كله تفل أسود كما سواد قلبي لا أمل، أخذت هاتفها، وقالت بصوت مسموع وبسخرية أقرب من الجد، مستغربة من نفسها لنرى أين حط ترحال غريبي أنا؟

الرسائل كثيرة متكدسة لم ترد على إحداها منذ عودتها، فقط مباشرة تتفقد بريده، اسمه اليوم ظهر أول اسم في راس اللائحة.

تلخبطت أناملها، ولم تصدق عيناها رسالة منه، ضغطت عليها وبدأت بالقراءة:

- جميلتي، من أين أبدأ؟ لا أعرف، لكني أعتذر كثيرا، خبئيني في حلمك وبين ذراعيك كي أهدأ، أتمنى أن صدرك ما زال يتسع لي، أنا أعلم ما فعلت، أقصد اختفائي المفاجئ جعلك تطرحين آلاف الأسئلة، وربما جعلك تكرهينني كثيرا، إن كان كذلك فلك الحق، لا ألومك، ففعلتي شنيعة.

توقفت عن القراءة، لم تعد ترى بسبب غزارة الدموع.

- حين تركت الفندق ذلك الصباح توجهت إلى المدينة القريبة، لأستأجر سيارة نستخدمها في فترة تواجدك في لبنان، كي لا نتكلف معاناة المواصلات، ونتجنب الاحتكاك المباشر بالناس، وقد تم الاستئجار، وأنا في طريق العودة صدمتني سيارة شحن كبيرة، أنت تعلمين أنا لا أصدم من أي شيء صغير، ومصائبي دائما على مستوى بين قوسين، هذه هي شيمة المشاهير، إنها مؤامرة ، نعم مؤامرة من الطرف الثالث الذي طالما حسدنا، وكان يتدخل بأسلحته القوية محاولا أن يبعدنا عن بعض،

صعقت للخبر، وبكت وناحت وهي تكمل القراءة:

- أما الآن فأنا بخير، اطمئني، نعم أنا من يكتب الرسالة، ولكن تلفوني القديم طار تحت عجلات الطغاة، وأنا تمّ نقلي في سيارة الإسعاف إلى غرفة العناية المركزة حيث مكثت هناك فترة لا بأس بها، عانيت من كسور في قدمي، الذراع والضلوع ونزف حاد في الرئة، ولكن لا تقلقي، قلت لهم: قلبي محصن، لأن حبيبتي فيه، فهي تحميه دائما، طبعا مع النزف خاف الأطباء كثيرا، وقالوا: إني كنت في حالة الخطر

لمدة أسبوعين، وبما أني أعاني من كسور في أضلعي اضطر الأطباء إلى إعطائي كميات كبيرة من المخدر كي لا أتحرك، وأنزف مجددا، أما بعد، أرجوك لا تحزني ولا تنزف عيناك أي دمعة، بل ابتسمي لأني أنا أبتسم، هل تعلمين لماذا أبتسم؟ لأن القدر أراد أن يسرقك مني، ولم يستطع، كنت معي في غرفة العناية الفائقة، طيفك لم يتركني، ويدك كانت تنام على صدري تسكن ألمي، وابتسامة وجهك ولمعة عينك كانت تضيء لي وحشة تلك الوحدة، لم تفارقيني، كنت أسمعك تنادينني: أين أنت أيها الغريب؟ وكنت أشعر بك قربي،

وكنت أتألم لألمك، وبذات الوقت شكرت الله أنك لم تكوني معي كي لا تتألمي، فأنا كنت بين الموت والحياة، أنت أحييتني.

جلست على أقرب كرسي تحاول أن توزن الخلل الذي أصابها، وعادت إلى القراءة.

- نعم أنا بخير الآن لا تقلقي، كم من المرات خُيل إليّ أن عمري أصبح قصيرا جدا، وأن وجودي على الأرض شارف على النهاية، ولكن قلب كان مداد الأمل والحياة، الآن بعد كتابة هذه الرسالة لست آبه إن حفر خنجر الموت لي قبرا، ولا إن خطف ملاك الموت الحياة مني، هل تعلمين لماذا؟ لأني أخيرا استطعت أن

أكتب هذه الرسالة لك، أعرب فيها عن شكري الذي لم تسنح لي الفرصة من قبل لأشكرك، على قدومك لرؤيتي وتكبد عناء السفر، وعلى أروع سهرة قضيتها في حياتي، وأهم شيء على أنك أنت، وكي لا تقولي يوما إني خذلتك، لم أرد الموت قبل أن أكتب لك، الآن لا

فرق بين الحياة والموت، حالتي معك شيء من الأبدية، لا نهاية. Infinity

هذه حالي معك، هي اتحاد بين روحي وروحك، اتحاد لا يقبل أي نوع من أنواع الشرخ حتى الموت، حتى الموت لن يأخذني منك، لقد ولدنا كي نكون هكذا عشاقا بالفطرة، مهما قال عنا الناس ، نحن ولدنا للحب والعشق، هل ستسامحين غيابي عنك يوما؟ هل ستسامحين تقصيري القسري يوما؟ أعرف أن قلبك جميل يا جميلتي، وأعلم مدى الألم الذي أصابه في فترة غيابي، وأعلم الشكوك، أعلم كل شيء، أعلم أنك انتظرت في الفندق أسبوعا، وأنك تحتفظين بحقيبة السفر خاصتي، كم فرحت

حين أخبروني أنها معك، عذرا لم أعد أذكر ما كنت أحمل معي، لا أذكر أي شيء من عمري إلا يومي معك، هل تصغين لنبض قلبي؟ أرجوك باسم العشق الذي يربط روحي بروحك أن تغفري لي، كل نبضة قلب في داخلي تهتف باسمك، حرام أن تحرمني الحياة

منك الآن بعد أن وجدتك، لا تقولي لا، عشقي كالنهر الجارف، وأشواقي تركض خلفك، تفتّح الحب في حياتي على يدك، فأصبحت أراك في كل شيء حولي، أشتاق ذلك النور في عينيك، وأشتاق ابتسامتك، أعشقك.

سأكتفي بالكتابة الآن، مع العلم أني كتبت الكلمات على مراحل وجمعتها وأرسلتها في رسالة واحدة، المسكن أخذ مأخذه مني كوني بخير، لقد عادت الحياة لي عندما رأيت وجهك المنير اليوم.

في أعماقها صوت يصرخ، وعلى صدرها تكدست الحيرة والمشاعر، لم تستطع أن تفرق، هل الغبطة بسلامته أم حنقها على غيابه، أم غضبها على القدر والحياة اللذين رخّصا فيهما لقاء أسبوع واحد؟ قوة ديناميكية تدفعها مسلوبة الإرادة مشلولة التفكير تجلس تحدق في اللا شيء. هي لحظات شح بها القدر عليهما، شقاء ما بعده شقاء، سكوت يلفها، وضغط أثقل كاهلها، هل عليها أن تكتفي بما منّ به عليها الزمن؟ وتنسى وجوده الذي زعمت طوال شهرين على تعوده؟

- ماذا تعنين هتف صوت في داخلها، أعرفك وأعرف أنك بالحب تقتاتين، وهو دافعك إلى الحياة، لا تجسر حتى على الإفضاء بهذا السر إلى ذاتها، ما زالت تذكر ملامحه، وجهه الأسمر، العروق النابضة في عنقه، أنفاسه وذراعه تلفها، قحط وجفاف حياتها كانت قبله، أما الآن فها هي تشتهي وصله.

جمعت قوتها وأفكارها، وهاتفت الفندق تسأل عنه، أجابها صوت الموظف:

- أجل سيدتي أنا بخير، حمد لله أنك اتصلت، لقد كنت أنتظرك، لقد مر صديقك من أسبوعين، ولكن يا سيدتي حاله كانت سيئة جدا ومريعة.

- ماذا تقصد؟ تمتمت.

- لقد أتى في سيارة إسعاف لم يقو على الدخول، ولكن أنا خرجت إليه، أول ما سأل عنك، وقد أخبرته أنك تحتفظين بأغراضه، قاطعته قائلة:

- لماذا كان في سيارة الإسعاف؟ ولماذا لم يستطع المشي؟

- لم أستطع سؤاله، ولكن سائق الإسعاف قال: إنه قد تعرض لحادث سير مريع مع

شاحنة كبيرة ونجا منها بأعجوبة، وقد قضى في العناية المركزة قرابة شهر بين حي وميت، كسور في الرجل والذراع، ووجهه مهشم، قال لي: إن نزفا في رئتيه كان الخطر الرئيسي على حياته، بسبب ضلوعه المكسورة، آه يا سيدتي لو رأيته كان في حال يرثى لها، وقد أخبرني السائق أنهم أعطوه مخدرا لمدة شهر كي لا يستيقظ من شدة الألم، وكان كلما استيقظ قال: ريتا.. ريتا، هذا الاسم الوحيد الذي كان يلفظه.

- إلى أين أخذوه، هل لديك أي علم؟

- أجل، قال لي السائق إنه كان مصرا على الذهاب إلى قريته، وترك لي العنوان، لم يرد البقاء في المستشفى علما أن سائق الشاحنة التي صدمته تكفل بكل مصاريف العلاج حتى نقله إلى بلدته، وأي شيء يحتاجه.

- ما عنوانه؟

تريد أن تصرخ، تريد أن تبكي، أن تكسر الهاتف الذي

تحمله في يدها، تريد أن تهرب من هذا الجسد المحدود، وتكون إلى جانبه، إذن تعرض حقيقة لحادث سير

وليس ببسيط بل لولا قليل لمات، كيف لم تذهب إلى المستشفيات تبحث عنه؟ كيف لم تخطر ببالها الفكرة؟ كيف تركت للأنانية أن تسيطر عليها، وسوء الظن بأنه هرب وتركها، راحت تجلد ذاتها بشتى أنواع الكلمات والنعوت حانقة، يجب أن تكون معه.

- سيدتي ما زلت هنا؟ جاءها صوت موظف الفندق.

- أجل.. أجل، هل عرفت أي شيء آخر عنه؟

- لا، كل ما عرفته أنه كان مصرا أن يمر بالفندق، ولقد طمأنني صديقك أنه بخير.

- شكرا لك، ليلتك سعيدة.

أغلقت الهاتف حتى قبل أن يكمل كلامه، هو هذا حظ المساكين في الحب، تمتمت وراحت تذرع أرض الغرفة، ولم تعرف كم مر من الوقت وهي في هذا الهذيان.

غابت شمس ذلك النهار وراء الأفق، وكانت السماء مكتظة بالسحب، هو كانون الأول وما يحمل معه من مطر وسوداوية، طالما أحبت فصل المطر، ولكنها الآن تراه يخنقها، ويجلد جسدها، منهمر بقوة على نافذتها، أترى هل يولد البشر كي يعذبوا في هذه الأرض حين يُحبون؟ زحف الليل ببطء، والهاتف ما زال في يدها، خلت إلى أوراقها وكتبها تحاول أن تقرأ أو تكتب كي تهرب من أفكارها وتحمي ذاتها من تأجج

ألسنة اللهب، لم تستطع فكاك أفكارها من كلماته التي أعادت قراءتها أكثر من مرة من على الشاشة الصغيرة، وما لبثت أناملها أن راحت تكتب جوابا على رسالته.

- سلام أيها الغريب أنت هنا؟

توقفت عن الكتابة، لا تجرؤ على إضافة أي حرف، لو كتبت لنزفت دمها في رسالتها من شدة الألم الذي يعتريها، تسمرت عيناها في الشاشة الصغيرة، وأطالت التأمل فيها تحملق مشدوهة، تنتظر وكأنها تنتظر

رسالة من العالم الآخر.

طال الانتظار، وكأن أحدا لم يقرأ الرسالة، فراحت تختلق الأعذار في رأسها من فرق الوقت، عله نائم، أو أفزعتها تلك الفكرة، وانتفضت من على كرسيها: لا ،لا يمكن أن يكون قد قضى الآن، فلقد طمأنها عامل الفندق، ورسالته كانت منذ بضع ساعات لا تتعدى ست ساعات، حاولت أن تهدئ من روعها، وتبتسم وهي تعاود استدعاء أحداث ذلك المساء الذي قضته معه، لا شيء يشبه ألم الانتظار، لا شيء، تردد

تعويذة بينها وبين ذاتها وهي تُسلم جفنيها للكرى، لم تكن ليلة هادئة أبدا، عاشقة في سجن المسافة، وهتاف قلب إلى تؤامه يؤرق نومها، سحرها بحضوره، وكانت تريده قريبا منها جدا، جزء منها كان يناديه بلهفة، والجزء الآخر أراد الانتقام منه على غيابه، تحبه بأنانية العاشقة وكبريائها تجلدها، دمرت هذه الأفكار حياتها على مدى الشهرين الماضيين وهي لا تعرف عنه أي شيء، أما الآن فها هي تصغي إلى أنينها، وقد أنهكها ألم الشوق

والعشق ونار البعد، تتوق إليه كطفلة معذبة الروح خائفة

ترتعش، تريد الاختباء في حضن أمها، يرتادها نوبات من الهلع تستيقظ تنظر إلى هاتفها لا جديد. مرت الأيام ولا جديد ولا أي إشارة حتى تطمئنها بأنه قرأ الرسالة. أسبوع وهي تحيا في دائرة من الفراغ، تقضي أوقاتها بين شاشة التلفون وبين سريرها، وحده من ملأ حياتها، ها هو الآن في صراع ما بين الموت والحياة، وهي تقف قاصرة عن أن تكون إلى جانبه، يا لسخرية قدر أحمق، هل هذا هو عقاب الإله لها وله أم أنه انتقام الحياة؟ تسمع قهقهة الحياة كأنها تسخر بهما، لا ليس بالتحدي نبرة صوت الكلمات تتفوه بها الحياة متهكمة ساخرة، تتركها حطاما، تطول بها ليالي الشتاء الباردة، هجرت الفرحة والابتسامة حياتها،

قلبها القتيل الذي ملأه بالأمس القريب البهجة والفرح، وجدت نفسها الآن سفينة في

مهب الريح، لا تملك يداها أي سبيل في هذا الصراع الذي طال، الأمس والليلة وربما غدا، متى يولد الفرح؟ متى ينتهي هذا الليل البارد الطويل؟ متى تمتلئ من اللقاء مرة أخرى؟ متى تنتصر على أفكارها وهواجسها، وعلى تهكم القدر والحياة منها متى؟ لا بد من خطة، لا بد من قيامة، ولا بد من أن يكون هناك سبيل لمعرفة أخباره والاطمئنان عليه، آه يا وجعي متى ستنتهي؟

صباح جديد أشرق، قاومت الكسل الذي يكبل جسدها وفكرها، تلملم بقايا دمعة باتت معها في ليلة الأمس، عملت لها فنجان قهوة، خرجت تستدفئ تحت أشعة الشمس التي تطل من خلف السحب بخجل ووجل، هذا الصباح مختلف، شيء ما بداخلها يقول لها وهي تُمسك هاتفها، وتسمع صوت قلبها يهتف بفرح وهي تقرأ:

- نعم، أنا هنا الآن، أين أنت يا جميلتي؟
- أنا هنا، أنا هنا بلهفة تكتب.

- وأنا هنا، جاءها الجواب مباشرة، يا وجعي ويا فرحي أن تكوني أنت هنا.

- سلامتك، ألف سلامة، طمني كيف حالك الآن؟ أنا الآن بخير جدا، أجابها وأرفق ابتسامة، وأنت كيف حالك يا سيدة قلبي وروحي؟

- أنا بخير لا ينقصني إلاك، عندها تكتمل أجزاء حياتي.

- اعرف، قاطعها بقوله.

- ولكن مر أسبوع ولم تجبني، لماذا هل لي أن أعرف لماذا؟

- يا جميلتي، لقد فاتني أن أقول لك: إن هاتفي قد تحطم في أثناء الحادث، ولم يبق منه أي شيء، ولقد استعرت هاتف صديق لي، كي أكتب لك الرسالة الماضية، لا تقلقي، لقد مسحتها في الوقت ذاته، حرصا عليك ولجهلي بالتكنولوجيا، بالأمس اشترى لي هاتفا، وأنت تعلمين حال الإنترنت في بلدي.

- تقصد الآن أنك تملك هاتفاً خاصا؟

- أجل، هاتفي ولا شيء يوجد عليه سواك.

أرادت أن تضمه، وتقبل ثغره، وتحوطه بذراعيها، لعلها تخفف عنه وطأة الألم، وربما تهدأ هي عندها، وتستكين روحها المرتعشة.

- أخبريني عنك، أنا لن أستطيع الكتابة كثيرا، فما زالت يدي ضعيفة، ولكن إرادتي قوية، أقرأ وأهيم عشقا أيضا، فاكتبي كل شيء، كل ما يخالج صدرك، فحروفك الآن هي عزف ناي، وعود وقيثارة. اغرورقت عيناها بالدموع، راحت أصابعها تكتب وتستفسر عن كل شيء منذ تركها في الفندق إلى اللحظة التي أرسل فيها أول رسالة.

- لن أصبر على غيابك، ضعيني عطرا فوق ثيابك، فكل ليلة تمر أحلم بك، أهرب من سريري بأفكاري، أجمع لك باقات من الفل والأزهار، حمراء وزرقاء صافية كسماء صدرك، ودافئة كدفء أناملك، ورقيقة مثل روحك، وأصلي صلاة ناسك أن تعجبك

- أنا أهرب إلى زجاجة عطرك، كلما باغتتني موجات الحنين، لا تضحك إن قلت لك

أرتدي قميصك، أقبله، وأتخيل نفسي بين أحضانك، أنام وأستيقظ وأنا أرتديه، لم أغسله بعد أردت أن أحتفظ برائحتك في داخله، كم مرة عانقته، وكم تحدثت إليه وعاتبته، لقد كان صديقي الصدوق في غيابك، يتحمل غضبي وصراخي عليك، وكنت أعتذر، اعتذر من قميصك، نعم أعرف أن هذا أشبه بالجنون. قاطعها قائلا:

- بل هذا جنون يا حبيبتي، لا تخافي، اعترفي أنك مجنونة وأرسل لها ضحكة مطولة

- نعم، جنون أعرف، وهل كان عليك أن تضعه في إطار من السخرية أجابته مداعبة.

- لا ..لا إنه في إطار من الواقع المشوه.

ضحكا معا، فرح عارم يغمرها وطمأنينة تسربت إلى قلبها، وهدأت ظنونها وشكوكها، والألم ابتدأ يتخذ له منحى آخر، هما معا الآن حتى ولو من بعيد، لا هم المهم

هو بخير وهي أيضا! لا تستطيع أن تقول بخير، ولكن أفضل من لا شيء،

في وسط هذه الحياة هناك تعاريج، وهناك صعود وهبوط، وهناك ليال مزخرفة بالأمل، وهناك ليال باردة موحشة يلوك الألم روح الإنسان، ويبصقها في كتلة من حيرة متناهية وضياع، وتكون فيها النفس مُتحجرة، وتهرب السكينة من النفوس، وتبدأ الأخيلة بالتخاطب، والأطياف تهجر مخادع الكيان، هذه هي حالها الآن.

تتماوج بين صعود وهبوط ، لا تقوى على كشف أسرار روحها، فلقد أتقنت إخفاءها بشكل جيد حتى عن روحه أيضا، لم تُخبره عن كل ما استجد معها في غيابه، بل كانت تطمئنه بأنها على ما يرام، وأن حالها جيدة جدا، لم يستطع خرق خفاياها هذه المرة، فلقد كانت بارعة جدا بإخفاء الألم الجسدي، الآلام التي انتابتها في الفترة الأخيرة ،آلام لم تعرف كيف تفسرها، ولم تزر الطبيب، لم يكن عليها صعبا أن تكتم ما يخالجها فقط كي تراه يتعافى أمامها إلى التمام، إلى أن قالت له يوما:

- أرسل لي صورة لك، أريد أن أراك.

- مُصرّة أنت؟

- نعم اليوم والآن التو واللحظة.

- غدا، هل ينفع غدا؟

- لا، الآن أريدها الآن.

- كم أنت عنيدة يا حبيبتي الشقية، حسنا أمهليني دقيقة لأحلق ذقني، وأرتب شعري و..

- لا ترتب أي شيء، أريد أن أراك كما أنت.

- حسنا، ولكن عديني بأنك لا تهربين من شكلي، وأنا غير مسؤول عن الكوابيس بعد أن تري دراكولا مصاص الدماء.

- لا عليك.

أرسل لها صورة هزيلة شاحبة، يبدو أن الموسى لم تزر ذقنه لفترة طويلة، ولكن ما زالت عيناه تحملان شرر العشق ذاك، وذلك النور والغموض والعمق واللهفة. ابتسمت وهي تداعب الشاشة بيدها.

- شكرا، رائع ها أنت حي.
- وبكامل قواي العقلية، هل اطمأننت الآن؟
- نعم.
- وبعد؟

سألها بعد ما مرت قرابة العشر دقائق، ماذا بعد؟ ماذا تريد بعد هي لا تعرف، يتباحثان في هذا العالم غير المرئي لساعات، تذوب شغفا له، ويذوب إليها حنينا، أشعة العشق حملتهما إلى ما وراء الخلود، تبادلا الآراء،

سيئات وحسنات هذا الحال، إدراك حقيقة الكون والكيان، مساكنة الأرواح منا لمن نحبهم، أسرار الفكر غوامض الكون، سر الوجود، كنه الحزن والفرح، المجد والشهرة، الفشل والنجاح، ما يفرقهما وما يجمعها. مرت الشهور ولم ترزقها الحياة سببا وجيها واحدا أو حتى عذرا يجعلها تترك كل شيء خلفها، وتركض إليه، حتى استسلمت أخيرا، إن هذه العلاقة أقصاها هي علاقة الروح بالروح، متنافرة أفكارها الآن ومتناحرة روحها، حتى هي ذاتها جزعت منها. استيقظت يوما وهي

في ريعان الشباب في مغارة مُغلقة قيل عنها عش الزوجية، محكمة الأقفال بورقة كتبوا عليها قسيمة زواج! لم تكن عرفت من الحياة إلا بعض الفتات، ابنة القرية بعيدة عن المدنية والحضارة، ولكن في نواتها تسكن البراءة، وروحها روح طفلة بريئة مهما تقدم بها العمر، مكبلة الذراعين، تحوك من أحلامها

غطاء تختبئ خلفه عندما يهاجمها الواقع، حتى نبذها كل أصدقائها، لا لأنها ليست سيدة مجتمع ولبقة الحديث، وجوهرها يلمع كالذهب النقي، ولا لأنها لئيمة وعنيدة بل لأنها كما قالت إحداهن: " ريتا من عالم آخر ليس عالمنا هذا، لا نستطيع مجاراتها، ولن تدعنا ندخل ذلك العالم حتى ولو أردنا".

نعم صدقن بكل اتهاماتهن لها، فلقد باتت تعشق العزلة منذ أن عرفته أكثر من قبل، وهذا ليس بجديد عليها، وتغربل كلامها قبل أن تتلفظ به خوفا من أن تهمس باسمه في غير محله، أفراح الحياة ومباهجها لا تعنيها من قريب أو بعيد، ناموس حياتها يختلف عن

ناموس البشر، وبين ضلوعها يسكن قلب كبير لا يسعه الكون، تحتضن فيه صورة إنسان قمطته بأقمطة العشق المقدس، لا يوجد على وجه البسيطة ما يلفت أنظارها، اكتفت به حتى ولو أنه أتاها بعد فوات الأوان، هذا السؤال الذي طالما أرق فكرها: لماذا الناس الصح يأتون في التوقيت الخطأ؟ لم تجد إجابة.

سكنت حركة الطريق ذلك المساء، وانتصبت أمامها الأشواق تطالبها روحها باللقاء، ونفسها تأمرها بأن تتخذ القرار.

- أريد أن أسمع صوتك، هل هذا ممكن؟

- كيف لا أفهم؟

- سأتصل بك، هل سيكون هناك أي إحراج؟

- لي أنا لا، ولكن لك لا أعرف.

- لا تقلق، لا إحراج لي، سأتصل بك بعد ربع ساعة.

- وأنا سأنتظر على حرارة ولهفة العشق، تم الاتصال وسمعت صوته، وخلجات قلبها تسابق أنفاسها، كم هو جميل أن تعشق إنسانا، وتعيش الحب

بكل جوانبه، وهي تسمعه يُلقى عليها ما أشبه بقصيدة، سبقها بالقول لا تضاهيك الحروف جمالا، لكن دعيني أقل لك ما أحمل من مشاعر الآن:

- ألا نسجت لي من خمائل صوتك رداء به أتدثر؟

وأنت الوطن إليه أهرب أتاني من خلف السحاب صوتك ليحملني على أجنحة الحياة من جديد، تهللت روحي، وأنا ما زلت أستشعر نبضات قلبك، ورأسك يتوسد صدري، كم أسعدتني، كم أريدك. هل سأراك مرة أخرى؟

- لا أعتقد، أجابت بعد صمت طويل.

- هل لي بمعرفة السبب؟

- السبب كان منذ البداية أنت وأنا نعرفه، لا داعي أن نتكلم به مرة أخرى، دعنا نحتفظ بروعة هذه اللحظة.

- حسنا، صمتك خانق، هل تعلمين، إنه أشبه بصمت القبور، أعماقك تعج بالأفكار، أخبريني ماذا هناك؟ أين الفرح يا شمس الشموس ويا قمري العروس؟

أعادها سؤاله إلى أحاديث تجاذبا أطرافها فيما قبل: حين سألته:

- أي شيء ممكن أن يحدث في حياة اثنين يمنعهما عن اللقاء؟

- اللقاء المقدس لا يستطيع أن يمنعه أحد، أجابها بكل ثقة، وكأنه يريد أن يبحر خلف سؤالها، ويعرف من وماذا تقصد.

- هو لقاء عاطفي لا بد أن يكون بين حبيبين.

- ربما الإمكانيات أو وجود أحدهما في السجن.

- السجن نعم هو السجن، ولكن..

صمتت بضع دقائق، راحت تخاطب روحها، نعم هو سجن من نوع آخر، سجن ذهبي، كم حسدوها لهذا السجن، انتفضت من أفكارها وهو يكمل حديثه معها:

- برأيي المتواضع إن اللقاء الروحي لا يعرف مسافة ولا قيد، أما اللقاء الجسدي فيفتر بعد اللقاء، لأن غاية الشيء إدراكه، أردف قائلا:

- اللقاء الجسدي يفتر، كيف له أن يفتر، وكيف

لعناصر الحب أن يكتمل، ويكون العشق في أبهى صوره إن لم تتوفر فيه كل العناصر؟ أوافق على هذا الرأي، إن اللقاء الروحي لا يمكن أن تحده جدران وتقاليد وأعراف.

- سيدتي الجميلة، إذا كان الحب نابعا من أعماق القلب والفكر عندها لا يصعب على المحب إدراك الحبيب ولمسه حتى يشم رائحته، هذا إن كان ذلك العشق متبادلا.

- نعم.. نعم ولكن برأيي يبقى للقاء طعم ونكهة خاصة يكلل هذا العشق الروحي، ألا توافق على هذا الرأي؟

- أوافق طبعا، ودعيني أضف، رأي بسيط هنا في طبيعة العلاقة بين المحبين إن هم التقوا جسديا، وأحدهم شرد في فكره، عندها يا عزيزتي لن يكتمل عرس الملائكة، وممارسة الحب تصبح كأنها عادة سرية، ولا ترتقي إلى النشوة وخروج الروح لتتعانق وترتبط في لقاء روحي مقدس، أي الرابط الروحي هو الأبقى والأهم.

- إن طاقة الحب هي التي تحركنا، وتدفعنا إلى الاستمرار، هناك طاقة خلف الحياة تحرك الإنسان، وعندما يفرغ قلب الإنسان من المشاعر أو الأحلام يموت

أدبيا.

- إن الحب لي أنا إن لم يكن مرتبطا روحيا قبل الجسد لا أريده

- إن العلاقة الحميمة بين شخصين إن لم يكن يحكمها التواصل الفكري والروحي، عندها الجسد يعمل بغريزة الحيوان.

- هذا ما أعتقد أنا أيضا، وهذا ما يجعلني أتأكد من قصص الأبراج والكواكب وتوافقها، كما أرى توافقا كبيرا بيننا من هذه الناحية، فكلانا نحيا ربع الحقيقة والواقع، وباقي حياتنا هي حلم يقظة، ربما على أرض ثابتة دائما كي لا نُصدم بالواقع المرير.

أشياء وأشياء وكلام وذكريات ولقاءات فكرية وروحية عاشتها وحفرتها في ذاكرة قلبها بكل ما تحمل من جمال وارتواء، مرت من أمامها مثل شريط سينمائي وهي ترى كليهما في دور البطولة، استيقظت من ذكرياتها على صوتها يقول لها:

- يبدو أن الأحلام حملتك إلى عالم ثان؟ أنا هنا أنتظر.

عالمٌ آخرُ

هل نكتفي بالقليلِ في صحراءِ العمرِ

كلمة أحبك توقفتْ وتكسرتْ على الثغرِ

لم تتفوهِ الشفاهُ إلا بابتسامةٍ تشبهُ كلَّ شيءٍ إلا الفرحَ

ننسى ون- نسى كأنّنا لم نوجدْ يوما

إلا في لعبةِ القدرِ



تنهدت بشوق جارح، وأجابته قائلة:

- لقد جرفتني الحياة أيها الغريب، وأخذت مني مأخذها، بعض من البشر يجعل لحياتك قيمة ومعنى، وللوجود طعما مختلفا، وأنت وحدك زرعت الفرح في حدائق حياتي، وأسعدت روحي، وتذوقت معك السعادة، لحظات فيها بدلت يأس دهر بأسره، وحولت المرارة إلى شهد، أتيت، لست أعرف من أين، وكيف دخلت حياتي، ولكنك أنرت لي عتمة الحياة، كنت لي الدليل إلى

ذاتي، لم أعرفني كما عرفتني من خلالك، سكبت نار عشقك المقدس في هيكل روحي بيد علوية خفية، واضجعتني في جنائن الخلد يوم عرفتك، تسربت إلى أعماقي، حفرت لك مكانا طربت روحي لعذب الكلام منك حتى ولو كان قليلا ويسيرا، ولكنه بالنسبة لي كان أثمن من مخازن قارون، تسبيحة لروحي عشقك، وأغنية لشفتي اسمك، وقبلة حياة رؤية وجهك.

- ما أروعك، كيف لك أن تدخلي أعماقي، وتسرقي مني أفكاري، ولقد اكتست صحراء حياتي بزهور البنفسج

يوم عرفتك، حيرني الحزن الدفين في عينيك، وكانت هناك رغبة في داخلي أن أطرد شبح الحزن منك، وأجعل الفرح مسكنك، تعانقت روحانا من خلف قضبان التقاليد، نعم أنا أعترف، لم أستطع أن أكبح ذاتي عن محبتك، انبثق الحب بيننا شعلة طاهرة، بروح البراءة والعفوية، أنارت سبيل عالمي، وكنت لي أغنية الليل حين أسمع تغريد حروفك على مدى سنين

عرفتك بها قبل أن أتجرأ وأراسلك، كنت بهجة لفؤادي، وروحي تتراقص فرحا لمجرد فكرة وجودك في حياتي، جعلت حياتي مسرحا للسعادة، وأتقنت العزف على مفاتيح قلبي، تاركا إياه في سعادة مطلقة، فكنت نشيد مهجتي ورفيق وحدتي، وأنيس غربتي، كنت كل شيء برغم كل المسافة.

- الآن يا محبوبي، الليل سيعود حالكا كما سبق والصباح، والفجر سوف يتأخر، وستسافر بواخر الحروف وتهجر مينائي ومينائك، والجداول ستغير مجراها، والخريف هذه السنة سيأتي بغير أوانه، اصفرت أوراق دفاتري، والرياح بعثرت شراع سفينتي، وكسرت المجاذيف، ثكلى الآن روحي، ومثقلة بالضياع، لذا تراني أهيم في عرض البحر بلا بوصلة وبلا دليل، وغصت بالدموع، ولم تستطع أن تكمل.

- ما هذا الذي تقولين؟ لا أفهم.

- يا رفيق عمري الدفين، ويا توأم الحنين، كيف أقولها لك، كم ضحكنا على نوعية علاقتنا، وكم

سخرنا من قدرنا، وكم طربنا لها، كلما تذكرت كم من المرات قلت لي: لا أجد تفسير لماهية علاقتنا، ولكني أصفها بالكمال برغم أن العنصر الأساسي في العلاقات هو اللقاء، أما نحن فعلاقتنا لا يحركها الجسد، وليس هو المحرك الرئيسي لها بل التواصل الفكري والروحي الذي يجمعنا، التفاهم الذي بيننا، العشق الذي به يكمل أحدنا الآخر حتى من خلف قضبان المسافة.

- سفينتي فقدت ربانها، والريح مزقت أشرعتي " تجري الرياح بما لا تشتهي السفن".

- بل سأجمع رياح الجهات الأربع، لتهب حيث سفينتك لتقودك إليّ.

- هو حلم وقارب على الأفول.

- لا تستسلمي لليأس، أخبريني هل طرأ من جديد؟

- لا، يا حبيبي بل ما زلت أحبك أكثر من الأمس، وما زالت روحي مرتبطة أكثر مما مضى، مشاعري في تصاعد مطرد.

- ماذا إذن؟ لا تدعي أنفاس البعد تكتم أنفاسك، ولا تدعي الأفكار السوداء تحاربك،

- لا، الأمر ليس كذلك، فقط أنا كنت أنتظر أن تتعافى فقط ، أردت أن أرى ما خطته الأيام على وجهك حين طلبت صورتك، لتكون آخر ما أرى من هذا العالم الفاني.

- ريتا، كلامك يخيفني، أرجوك التوضيح، أرجوك.

- لقد أغلقت الحياة منافذها أمامي يا صديقي، أستطيع أن أناديك صديقي، فأنت كنت وما زلت صديقي قبل أن تكون توأم روحي وحبيبي.

- ماذا تعنين؟

- المرض لم يترك أي جزء مني دون أن يطاله، وكأنه عقاب السماء على ما اقترفت من إثم بحبي لك، مع العلم أن علاقتنا أطهر علاقة، علاقة لم تطلب الماديات بل اكتفت بالتواصل الفكري والروحي، علاقة فريدة أضحك كلما فكرت في ماهيتها.

صمتت تغالب الدمع المنسكب كالمطر، يقرع بقوة نافذة غرفتها، وكأن الطبيعة تسكب جام غضبها في ذلك النهار على وجه البسيطة أجمع.

- لا أصدق ما أسمع.

- لا بأس، هذه المرة أنا من سيرحل، ولكن أردت أن أخبرك كي لا تفاجأ برحيلي، وتمر في نفس الظرف والألم الذي مررت به أنا حين تركتني ذلك الصباح دون أن أعرف عنك أي شيء.

- لن ترحلي، سأجاهد كي لا ترحلي، لم نلتق بعد كي ترحلي، لن تكتبي نهاية حزينة للقصة بل ستكون نهاية مكللة بالفرح، يكفي ما كتبت من رحيل وانتظار، يكفي ما سكبت من الدمع، أرجوك، لا تكتبي نهاية حزينة، فما نكتبه على الورق سيلحق بنا حتما، ونلقاه في حياتنا ، لا تكتبي نهاية مؤلمة لا يا ريتا.

- ألا تلاحظ معي أكلمك الآن بالصوت وليس بالكتابة؟

- نعم، نعم ألاحظ ، ولا أريد لك حتى التفكير بتلك

النهاية.

- أيها الغريب هي ليست أي قصة، هي أنت وأنا.

- منذ متى كنا " أنت وأنا؟" ألم نكن أنا طيلة الوقت؟

- بلى، فأنت الوحيد الذي أستطيع أن أناديه أنا، عندها أستطيع أن أخبرك كم أحبك.

- إذن، جففي الدمع، ومزقي هذه الصفحة، و أعيدي الكتابة.

- هل من ممكن أن نبقى خطين متوازنين دون أن نلتقي؟ أجاب وهو في حيرة من الأسئلة التي تطرحها، ومن كل الكلام الذي يدور بينهما

- من يدري إن لم نلتق في هذه الحياة ربما في حياة أخرى بعد أن ندفع ديون هذه الحياة، ونسدد الجزية التي علينا.

- ليتني أستطيع تغيير النهاية، ليتها في يدي، فأنا لا أريد أن نبقى خطين في هذه الحياة دون أن نلتقي،

اذكرني.. اذكرني بكل ما هو جميل، بالحق كيف ستذكرني؟

- وهل أستطيع نسيانك كي أذكرك؟

- لنقل، كيف ستذكرني؟

- سأكتفي بأنك أسعدتني يوما، غير ذلك لن أتذكر أي شيء آخر.

- في مثل هذا اليوم سأجد كل ما يذكرني بك، ولكن هل سأجدك؟ سألتك هذا من سنة هل تذكر هذا الكلام من سنة؟

- لن أذكر أي شيء إلاك، أتينا إلى عالم العشق معا، وسنرحل معا، يدي بيدك هكذا اكتبي هكذا ستكون النهاية.

- ليتنا نستطيع أن نخط قصة حياتنا، فلقد أصبحت أؤمن بالأقدار، وبأن هناك قوة أقوى منا تدفعنا، قوة تشكل حياتنا لا نستطيع مقاومتها مهما حدث.

- ماذا أفعل كي تغيري رأيك؟

- لا شيء.

- إذن هي قصة تصميم ومبدأ وعناد، لم أعرف أنك عنيدة من قبل.

- لا مبدأ ولا عناد، تصميم ربما، ولكن في الأفق يلوح طيف الرحيل، وشبح الأسى يغمر حياتي، فتحت يدي لأمسك بروحك، فلم أجد في قبضة يدي سوى سراب، وحين رأيت الأسى يهاجمني واجهته بجيش العشق لك، حتى هزلت روحي من جوعي إليك، أنت موطن الأمن لي، جلست مطولا أفكر بكيفية الهروب من براثن هذا الفراق، فلم أجد سوى العناء لك ولي، فكل أوجه الرحيل والنهايات تحمل نفس ملامح الألم والوجع، فأنا أمشي في موكب الموت لا محالة، وأنت خرجت للتو منه،

- لقد استولى القنوط على نبرة صوتك وروحك، والخيبة تحيط بك.

- بل كل ما حولي وداخلي جحود لولا بصيص النور الآتي إليّ من نافذة عشقك

- دعيني إذن أدخل خبايا روحك.

- روحي تائهة أيها الغريب، في جوفي ينتفض الوجع، والبوح أخرسته ثقل يد الظلمة المغموسة بالجهل والظلم في هذا العالم.

- كم يؤلمني أن أرى زهرة الحياة تنطفئ في "الإنسانة" التي تعودت الحياة أن تستقي الحياة من حروفها.

- الحياة، سأخرج قليلا يا عزيزي من سكرة الحياة هذه عاجلا أو آجلا، افانا رآها لوحة سريالية رسمها فنان

يوم تركتها حبيبته على قارعة الطريق، فأخذ ألوانه وريشته، وراح يرسم شوارع القرى التي يجتازها بخطوط لا يفهم معانيها غيره، يرسم الحب بألوان رمادية، وطيور بلا أجنحة، وخيول بلا رؤوس، وهياكل عظمية، كل شيء مبهم، أين الرمز، وأين المرموز إليه؟ الكل يغشاه الغموض بل دوامة ثكلى من الألوان الحبلى بكل أنواع الوجع، أين الحياة في كل هذا؟ لا مجيب لنداء القلب المكسور.

- حبيبتي، أحن إليك بقوة ، لقد زحف القلق إلى داخلي والهواجس، طمئنيني.

- لا تقلق، غيمة لعلها تمضي بطريقها يوما.

انتابه القلق وسحابة من الحزن غمرت روحه، لم يستطع هذه المرة أن يخترق ثنايا روحها، ولم يعرف السر الذي تخفيه عنها، رأى ذاته مكبلا خارج سور روحها كالأعمى يحاول أن يجد فتحة يدخل منها إلى روحها، ولكنها حاصرت ذاتها بجدار كثيف من الغموض، وأخفت سرها في واد سحيق، وأعمت عينيها عن رؤية وجعه، وكأنها أغلقت آذان روحها عن نداء روحه، وهذا ما أغضبه أن تكتم عنه ما يخالجها، نعم، مشاعر ذاق مثلها وهو تحت عجلات سيارة الشحن الكبيرة التي صدمته، لم يكن في خاطره ساعتها إلا ريتا، هي التي أعطتها القوة على الحياة، هي التي بعثت أنفاس الحياة في حنايا صدره، وأعطته قوة الإرادة على المقاومة ما بين الوعي واللاوعي.

أغلقت هاتفها وهي تسأله بل تسأل ذاتها، ولم تنتظر منه الرد:

- إذن أين سأكون أنا غدا وبعد؟

- ستكونين هنا داخل قلبي وروحي، كما كنت في كل حين وكل وقت،

في لهجة استهجان مُحيرة، ومستاء من محدودية عالمه الآن، ولعن هذا العالم الافتراضي المفروض عليهما، أخذته أفكاره إلى هذا العالم الذي جمعهما الذي تمنى لو أن حياته كلها كانت عالما افتراضيا حيث التقى بها، وعرف معنى السعادة قربها،

علت الكآبة وجهه، أراد أن يحول ألمه وحيرته ووجع غيابها عنه، فانكب على العمل، دأب عليه كي يسد الفراغ التي خلفته وراءها، المحدودية قاتلة خاصة لرجل مثله، لم يشعر بتقصيره فيما مضى حسب قوله، لم يكن هناك ما يستحق منه أن يبذل الجهد الكافي، أما الآن وبعد أن وجدها، وجد الهدف الأسمى لحياته، ولكن

محدوديته منعته حتى بزيارتها والالتقاء بها، لذا صمم أكثر من ذي قبل على المضي قدما، والإسراع في تحقيق الهدف نحو غرضه، ألا وهو أن يستطيع أن يؤمن

ما يكفيهما لنيل الحرية كي يكونا معا. دبت الحياة في شوارع المدينة حيث تقيم في ذلك الصباح، وأشرقت الشمس وهي لم يغمض لها جفن طيلة ليلة الأمس بعد ما تركته.

يقولون: إن الحب هو مهد الحياة، وإن العشق هو سرير الراحة، أجل، الحب كان الحياة بالنسبة لها، وهذه الحياة تجسدت في شخص واحد لم ترد أن تفارق الحياة دونه، ولا أن تحيا فيها دونه، مستلقية في سريرها وأسراب من الذكريات تحط في مخيلتها، مسترجعة الأيام الخوالي، حين كانت تتأمل في مستقبل يملأ فصوله حضور من أحبت روحها وعشقت، وعزيمة على خرق المستحيل والارتفاع فوق الأعراف والتقاليد ونواميس البشر، وقوة خفية تدفعها لتحلق في عالم غير هذا العالم، ولكن شتان ما بين الواقع والحلم، فتقف محتارة بين ميول روحها في جهة من الأرض، وجسدها في الطرف الآخر منها، تشرق الشمس حيث المغيب، ونفسها معذبة بين الشروق والغروب، كيف للإنسان أن يجمع هذا الكم الهائل من التناقض في جسد هزيل، وراحت تلم

نفسها، حيث توهمت أنها تستطيع أن تكابر وتعاند يد القدر الأقوى من كل قوة، وأن تكون هي سيدة قراره، ومن تصنع مصيرها وسعادتها بيدها، لقد أعمت قوة العشق عيوني، هذا ما أفضت به بين ذاتها وبين روحها. يا لها من عواطف متأججة، و يا له من صباح يجمع بين تعاستي ويوم ميلادي، انبثقت حياتي من أعماق العدم، وها أنا أسير إلى العدم مرة أخرى، الآن عرفت أن الطريق إلى عرش الحياة المقدس يجب أن يكون من خلال العشق.

حقيبة سفر

تأملت غرفتي على جدرانها ذكرياتي

صورٌ من ماضٍ سحيقٍ

أغلقت بابي خلفي

واعتليتُ الريحَ وإلى المجهولِ يمّمتُ وجهي



قامت بخطى متثاقلة تسير نحو خزانة ثيابها، تلملم منها القليل، وتتناول حقيبة سفرها، "كل ما أملك هو في حقيبة السفر هذه" ترن هذه الكلمات في مسامعها، فتغرورق عيناها بالدموع، بسكوت مطبق أشبه بسكوت القبور، وبحركات بطيئة راحت تلملم وترتب في حقيبة سفرها ما ستحتاج إليه في رحلتها الأخيرة، ولم تكن تعي هل ستعود منها حية أم محمولة في صندوق خشبي مزخرف مكتوب عليه أول حرفين من اسمها؟ لن تدع هذه الفكرة تسيطر عليها كثيرا، ففراقه هو الأصعب

من أي فراق، وأن تكون معه أقسى من الفراق، لذا آثرت الرحيل دون أن تشرح كثيرا.

أغمضت جفنيها مرة أخرى، وهمست: أريد أن أنسى ماضيّ، وأنسى معه حاضري والكيان والوجود، ولكن لا أريد نسيانك، نغمة جارحة وحزينة نبرات صوتها في هذا الصباح، تسافر عبر الفضاء، ترجو أن تصل إلى مسامع روحه، لعله يسامحها على التغير المفاجئ الذي واجهته به، إن محبتها له أقوى من الحياة والموت، قالت في سريرتها والزمن سوف يثبت لك أن ما فعلته كان في مصلحتنا نحن الاثنين، لا مجال للنار أن يكون بجانب البنزين، كلانا قابل للاشتعال، وفي اشتعالنا حريق مأساوي" لا بل سيكون نورا، كان يجيبها نور لأرواح العاشقين التي انسحقت تحت أقدام الموت الروحي" اكتنف قلبها سلام، وتجلدت روحها بالصبر برغم الغصات التي تسكن صدرها، كلما تذكرت ذلك التفاهم الروحي الذي تم بينهما في برهة قليلة من الزمن.

لامبالاةٌ

الحياةُ تنتهي قبلَ أن تبدأَ

يهربُ منك الحلمُ وتسكن

في حكايةٍ من حكاياتِ الخوفِ



لآن فِي هذه اللحظة بالذات لم تعد تأبه إن قضت حياتها كلها في كوخ أم في قصر، فكل الأشياء مُرة في غيابه، وكل الأماكن باردة دون حرارة عشقه، ألم يكن هذا خيارها؟ بلى لقد كان خيارها الخيار الذي لا مفر منه، ولن تكون الليالي فيما بعد أكثر برودة مما كانت عليه في السابق، فدفء سرير الزوجية هجر حياتها منذ أكثر من خمسة عشر عاما، يعيشان تحت سقف واحد فقط من أجل الأولاد، فهي ليست من أولئك البشر المتطفلين، تنمو على مأساة الآخرين، وتحتقر اليد التي شاركتها يوما جسدها وقوت يومها، ولم تجد عندها الشجاعة الكافية لتعلن الانفصال بينهما، ولَم تملك

القدر الكافي من الجرأة لتواجه مجتمعا بأكمله، من عائلة وأصدقاء وأقرباء، الكل يرى في زواجهما الزيجة الكاملة بل يحسدونها على النعيم الذي تحيا به، يرون في بعض الحرية الممنوحة لها جنة، هم لا يدركون أنه ثمن سكوت الليالي الباردة، والوحدة القاتلة التي كانت تعانيها على مدى أكثر من عشرين عاما، وشرخ أصاب علاقتها بشريكها يوم جرح كبرياءها بالخيانات المتكررة ضاربا بعرض الحائط مشاعرها الأنثوية، وفِي كل مرة كانت تواجهه كان يقر بعين الوقاحة طالبا الصفح والتسامح، ولكن كيف لقلب مطعون أن يسامح ويغفر، كالجلجلة أضحى قلبها ملطخا بالدماء والألم والعار، مضرجة روحها بالألم والخيبة، لم تعد تعرف أتسامح أم ترضى بالأمر الواقع كأي امرأة شرقية مكبلة بقيود العادات والتقاليد المهترئة؟ كانت تصمت وتخفي جرح قلبها في صدرها إلى أن التقت توأم روحها، وعرفت أن الحب له وجود، وأنه القوة العظمى التي تحيي قلب أنثى قتله رجل آخر.

تتبخر الأحزان كما تتبخر مياه البحيرات التي تسكن على ضفتها، منذ ما يقارب الثلاثين عاما هجرت بلدها إلى بلاد غريبة لتستقر في مدينة "مونريال" وحيدة في مدينة تعج بملايين البشر، تعمل في مكتب طبيب أسنان، عمل روتيني تستعيض به عن الوحدة والملل الذي تعانيه في غربتها، شأنها شأن كل المغتربين في عمرها، لم تتعد الخمسين من عمرها، لكن تحمل من جينات الجمال ما جعلها تتميز بالجمال برغم الشعر الأبيض الذي كسا رأسها في خصلات فضية، وزادها هيبة وجمالا.

هذه هي قصة حياة هذه الوردة التي نمت في سفح الحياة، ووهبها الحب الحياة بعد أن

ذابت الثلوج التي علت جسدها النحيل، وقامت من مرقدها تعدو في سهول العمر، تريد أن ترتوي منه قبل أن يأفل النهر، وتغيب شمس حياتها، مرددة أغاني الحب، متراقصة مع نسمات الفجر الرقيق، مترنحة نشوى من خمرة العشق في قلبها.

السعادة لم تفارقها على مدى الأعوام القليلة التي عرفت شمس بها، لا بد أن تطلق عليه اسما، ولأنه كان هو مصدر الحياة لها، وأطلق عليها اسم حياة، هي بدورها أطلقت عليه اسم شمس، لأنه علميا لا حياة بدون شمس، ومن هنا أتت بالاسم.

يبدو أن أيام حصاد العمر بات وشيكا، ولقد نضجت حياتها وبلغت، وحان وقت الحصاد، ولكن بأي اتجاه، كما كانت تردد دائما القول المأثور: "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن" هكذا حصاد أيامها حضر، وامتدت يد المرض الخفية إليها من حيث لا تدري، وتسرب الموت إلى جسدها رويدا رويدا، لا يكفيها نزاع الروح بل زاد في نزاع الجسد، وسراج عمرها أوشك على الانطفاء، بحسب تقرير الطبيب بعد آخر زيارة قامت بها من حوالي الشهرين.

راود النعاس عينيها، فهي لم تنم ليلة أمس، تمددت على السرير، وراحت تحلم بيوم التقته، وتعيد استنشاق عطره يوم راقصته، وتسمع وقع خطواته وخفة حركاته،

وتحس يده القوية، تدير جسدها الصغير في باحة الرقص، وهي تتبع تعاليمها تلميذة مذعنة لأستاذها، فتذكرت القميص وباقي مخلفاته تناولتها من تحت المخدة، وعانقتها عناقا طويلا، وأسلمت عينيها لتنام نوما عميقا.

خمدت نيران غضبه، لكن نار العشق تأججت أكثر، ونيران العزيمة على صنع قدره بيده زاد من تصميمه على إكمال رحلة البحث والتوفير والدراسة، ليجمع ما يستطيع به أن يشترى وجود ريتا في حياته.

" أيتها الجميلة التي اشتقت أن أدعوها باسمها وأسمعها تجيب " ايوه حياتي" يا من حجبتك يد الأيام عني، ومنعتني عنك قسوة الظروف، ما زلت أؤمن بأني سألقاك في هذا العالم، لن أنتظر، ولا طاقة لي على انتظار الحياة الأخرى، سأدفع الدين عنك وعني، وأعمل جاهدا كي أهب لك، أنا أعلم، ربما تقولين عني إني أبالغ، ولكن مهما كانت أسباب رحيلك فأنا أعذرك،

ولن أغضب، وسأثبت لك أنه حتى في هذا العالم سوف نتمتع بالحب والعشق والحرية الإنسانية."

ها هو هناك على طرف العالم من حيث تشرق الشمس وتعطي الدفء والحياة، وتنبض بالأمل والنشاط للجنس البشري، فكل يذهب إلى عمله، يكافح للقوت اليومي في هذا الشرق التعب الذي تمكنت منه الحروب، وفرقت أبناء الوطن الواحد، وألبت كل واحد على جاره، حتى أهل البيت الواحد شرذمته العائلات في شتى أنحاء العالم، وكانت الضريبة العظمى التي دفعها الإنسان المسالم في الوطن العربي أن اسمه اقترن بالإرهاب، وأصبح من الصعب والنادر الحصول على أي تأشيرة للدخول إلى أي بلد غربي بل في بعض الحالات من المستحيل.

صباحا مع فنجان قهوته يجلس مناجيا روحها، وهي ساعة الغروب تجلس في شرفة منزلها الجديد المُطل على بحيرة جميلة هادئة، بعد أن استفاقت من نومها، كل شيء هادئ، الشمس تغرب وكأن الحياة كلها تسير

معها نحو حتفها، تشمئز من الفكرة، أحبت الغروب دائما، ولم تكن ترى فيه أي مشاعر سوداوية بل كانت تراه من نعم الخالق على الخليقة بكذا لوحة طبيعية لا تستطيع ريشة أبرع الرسامين تجسيدها.

إذن ما الداعي الآن لفكرة الموت التي انتابتها فجأة، هل الموت أفضل نهاية للعشاق؟ وهل ستنتهي هناك في أحضانه؟ لهذا كانت تستعجل الرحيل، انقطاعها عنه لم يقطع التواصل الروحي معه، وكان يتهيأ لها أنها تسمع صوتها بعض الأحيان يوقظها من نومها فتبتسم، لأنه زارها في أحلامها، وفي بعض المرات وهي يقظة كانت تسمعه يناديها، فتلتفت إلى مصدر الصوت بعفوية.

كم تمنت لو أنها قبّلته، وتذوقت جبينه، وأمضت ليلتها معه في غرفته، فهو النصف الجميل منها واهب الحياة، وهي لا تكتمل دونه، ولكن كم من الأمنيات تبقى طي الكتمان، أو حتى تذروها ريح الواقع والحقيقة، ثم نحصد من بعدها ألم الخيبة.

عيناها طافحتان بالدمع، طلبت ألا يرافقها أحد في رحلتها هذه إلى المشفى الذي اختارته بعيدا عن منزلها مسافة ست ساعات على الأقل، وطلبت من الجميع ألا يزورها أحد إلا في حالة واحدة وهي موتها.

بابتسامة رقيقة استودعت أولادها في يدي الإله الذي كانت تثق بحكمته من جهتهم، وكانت على يقين تام أنه يحبهم أكثر منها بكثير، وسيهتم بهم من بعدها، وطمأنتهم أنها ستكون بخير، وألا يقلقوا ويستمروا في حياتهم

كالمعتاد، ويواصل الكل عمله، لأن عجلة الحياة لن تتوقف بموت إنسان، وموتها هي لن يكون الأول في حياتهما، وعليهما أن يتحليا بالشجاعة الكافية، وأنها في ثقة كبيرة أنها ستكون في مكان أفضل إن خطفها الموت. راحت تجرجر رجليها، واستقلت سيارتها، وانطلقت باتجاه المشفى، وشعرت بحرية كبيرة وهي تنظر إلى الطبيعة التي اكتست باللون الأخضر، مع بعض من بقايا الثلوج الخفيفة المنتشرة على المساحات المجاورة

للطريق الرئيسي، إنه بداية فصل الربيع، شعرت بذاتها وهي خلف مقود السيارة أنها تناديه بصوت مسموع، تتكلم إليه وكأنه يجلس إلى جانبها، تشرح له كم من مرة زارها في أحلامها بعد انقطاعهما عن بعضهما، وكم من المرات شعرت بقوة ذراعيه تلفها، وتعيد على مسامعه العهود التي قطعاها معا، وكيفية اللقاء، ابتسمت وهي تردد: سنلتقي - يا حبيبي- سنلتقي يوما فلا تجزع! وسنهرب تحت جنح الليل يوما إلى بلد لا يعرفنا به أحد، إلى الجزيرة التي وعدتني أن تشتريها لي، سنقتني هناك حصانين وكلبا وبعض الماشية والدجاج، وسنقضي باقي حياتنا كالإنسان البدائي بعيدا عن كل تكنولوجيات العصر الحديث، نصطاد السمك في الصباح، ونمارس الحب على الرمل الدافئ، وفي المساء نذهب في جولة على ظهر الخيل نتفقد جزيرتنا، وراحت تضحك بصوت عال، وتغني مع صوت الراديو المرافق، طفلة في جسد امرأة، حقا هكذا هي ريتا.

الشَّخصُ المناسبُ في الوقتِ غيرِ المناسبِ

وإني أحبك

هل عليّ أن أعتذرَ عن فيضِ مشاعري

أم على زمنٍ غابرٍ

أم على ليلةٍ فيها التقينا

في غربةِ الحياةِ



راحت تستدعي صوته وضحكاته وكل النكات التي كان يقصها عليها، ومشاغبات طفولته، حزنه ووجعه وفرحه، القصص الخيالية التي كان يقرؤها، وقصص النجوم والشعوذة وعلم الأحياء والميتافيزيقا، لم يتركوا أي موضع إلا وكان لهم نصيب في شرحه مفصلا، والغوص به معا، الإجرام والخيال العلمي وأفلام الرعب، الأدب والشعر طبعا هذه المادة الأقرب إلى قلبها، الرسم الموسيقا.

كم مرةٍ تناولا الروح الإنسانية، وحاولا معا معالجتها والبحث عن الروح الألوهية المقدسة التي تزور الأرض تبحث عن قلوب بشرية، كي تحولها إلى قلوب لحمية تنبض بكل ما هو جميل، كانا يضحكان معا، ويتشاركان معا في كل تفصيل صغيرا كان أو كبيرا، عرف عنها ما لا تعرفه عن نفسها، وعرفت عنه ما لا يعرف عن ذاتها كل شيء حتى خُيل إليها أنها عاشت حياة أخرى من قبل معه قبل أن تولد.

" لن أستطيع إخفاءك بين سطوري، وفي صفحاتي فيما بعد "

سألها مستغربا: لماذا؟

- لأنك حديث كلماتي ونزف حروفي، أرى ذاتي عارية أمام عيون البشر الفضوليين، نزف حرفي يكتبك، وملامحك تشغل كل ركن من أركان كلماتي، وروحك بين السطور تقيم، همس شفتي، ابتسامتي وقبلة العشق وحق الملكية التي ختمت بها على روحي، كلها تخبر عنك، كلها ترسمك.

ابتسم وأردف قائلا:

- كم أرغب في تقبيلك الآن، تبتسم وهي تتمتم: نعم أنا أرغب في ذلك كثيرا الآن.

تنحدر دمعة على وجنتيها، شبعت روحها من التنهدات، وحبلت ذاكرتها بكل ما فيه.

- أترين كيف أنا لا أستطيع البكاء؟

ولا دمعة قال لها في مرة، وكان فيها تواجه صعوبات الحياة، ولم تكن تعرف ماذا تريد كعادتها تتخبط بالحيرة، أراد أن يبتعد قليلا عنها، كي يفسح لها المجال بالتفكير بذهن نقي، ولكن أنّى لها الذهن النقي في بعده، فهو شريان الحياة الموصول بقلبها.

- أحسدك.. أحسدك.

- بل عندها - يا جميلتي- أكون غارقاً في لجة الحزن، أستجدي دمعة، لعلها تمسح عني اليسير من الألم الذي أتخبط به، بعض البشر يرون فيّ قساوة بأني قاس خالي المشاعر والأحاسيس، وأنا أتمزق من الداخل

من كثرة الأحاسيس المتضاربة، قلبي يبكي، روحي تُهرق وتزهق، ولا أجد لها منفذا حتى من عيني.

- نعم عندما نبكي كأن تلك القطرات التي تنحدر من الأحداق تغسل ألم القلوب كي تعود صافية، وتلمع بنقاء بصيرة الروح كي ترى بمنظار آخر.

- هنيئا لك البكاء، وهل هذا يعني أن قلبي ليس صافيا،

وبصيرتي ليست نقية؟

أضاف مداعبا إياها كي يرفع عنها الغمامة السوداء التي لفت روحها، وقد نجح، وكم من المرات نجح في رفع كاهل الحزن والحيرة عن صدرها المتعب.

- كم أتمنى أن ألامس جبينك بشفتيّ، مقبلا تلك الخطوط التي خطتها يد الأيام على جبينك، يا من تلامس روحي من خلف جدران الزمن والمسافة، يا من غيرت نظرتي إلى العالم وإلى الحياة والخلود، وجعلت أمامي بابا مفتوحا على الكون رأيته بمنظار آخر، وكأني أحيا في مجرة أخرى، وفي عالم آخر، ما سرك يا

تُرى؟ هل يُمكن للعشق أن يغير من طبيعة الإنسان، وتختلف معه المفاهيم؟

- إن لم يغير الحب قلب الإنسان ويجعله إنسانا جديدا فهذا يعني أن قلبه لم يعرف العشق، هذا الكلام قرأته ذات مرة، نعم أنا أعرف عما تتحدثين، وأسمع نبرات الاستغراب في صوتك، وأعتقد أنك قبل أن أعرفك لم تعرفي حبا، وقبل أن أعشقك لم تعي معنى العشق، أؤكد لك هذا هو العشق.

- أعترف بكل صراحة، لقد أحبني كُثر، ولكني لم أجد في أي منهم ما وجدت فيك، ولم يشدني أي منهم بهذا السحر الذي شدني إليك.

- نحن من قبل أن نولد كُتب علينا أن نكون لبعضنا، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- لقد استعجلنا على قدرنا، ولم ننتظر.

- ومن كان يدري أننا سنلتقي؟

- لو كنت أعلم أني يوما سألتقي بك لكنت انتظرتك.

أجابته بلهفة:

- لو كنت أعلم أني سألتقيك كنت فرشت الحياة بحروف العشق الوردية، وأنرت أناملي شموعا، لأنير لك الطريق إلى قلبي، وكنت نسجت من السحب ممرات إليّ، وفتحت باب القلب على مصراعيه كي تدخل وتستوطن.

- من كان يدري أن هناك "إنسانة" كما أشتهي بكل تفاصيلها كما حلمت روحي يوما.

تنهدت بأنفاس متصاعدة لاهبة كأتون النار المحمي، وهي تقود على الطريق الطويل.

- لا أدري سبب انحجابك عني طوال هذه المدة، لمَ لمْ أعرفك في الوقت المناسب؟

- لأن الشخص المناسب يأتي في الوقت غير المناسب ربما. أردف قائلا:

- كنت قد أغلقت قلبي عن العواطف والحب، وأعتقد أنك تذكرين هذا جيدا، حين كنت أقول لك: لقد أغلقت قلبي يا ريتا، أقفلته بإحكام، كنت تضحكين مني ولا تصدقين.

- كيف أصدق أن إنسانا يستطيع أن يغلق قلبه عن الحب، وهل نستطيع أن نسيطر على قلوبنا؟ اين ومتى تُغرم وتعشق؟

- كنت أعتقد هذا إلى أن قابلتك، عرفت أنك أنت من كان يجب أن أقفل قلبي وعقلي وفكري من أجلها، وتسربت إلي وأنا بكامل قواي العقلية عشقتك، والآن بعد أن وجدتك لن أدع أحدا يأخذك مني. تمتمت "لن أجعل أحدا يأخذك مني" لم يأخذك أحد مني بل أنا مضيت بكامل إرادتي ورحلت عنك، ورحلت عني، من سيعيدني إليّ، من سيعيد السلام لروحي، ومن سيهدئ جميع عناصر جسدي في غيابك؟ جرف الحزن روحها سيلا، وانتشر دخان الأسى من

حولها، وأشباح الرحيل والرحالة تجسدت أمامها، آه.. كم أحتاج إلى صدره الآن.

توقفت في جانب الطريق، وهي تصرخ:

- "الذي تطلبينه أصبح بعيدا جدا في آخر أصقاع الأرض" لقد أدركت الآن كم هو عظيم غيابه، وكم هو مؤلم الحنين، الحنين إليه، إلى وطن روحها، لململمت أذيالها ودموعها المنسابة، بمن تستغيث، ومن يسمع أنينها ومن يرثي لها.

شعلةٌ أو ورمادٌ

أستيقظُ في السنةِ مرتينِ
مرةً تدعوني شفاهُك للحياةِ
ومرةً حينَ توقظُ بي الإنسانْ
وترميني في غياهبِ النسيانْ
تدفنُ تحتَ الثرى
حبيبةً تنتظرك على عتبةِ الحياةِ في أحدِ الأركانْ
كأنّها كائنٌ يومًا هنا كانْ



لا تعرف كيف وصلت إلى المشفى، أ بقوة الدفع اللاإرادي أم بقوة الحياة؟ وها هي الآن أمام مبنى قديم بعض الشيء، أشبه بفندق صغير تحيط به الأشجار الوارفة الكثيفة العالية، مشفى للأمراض السرطانية، دلفت إلى ردهة الاستقبال، وهناك استقبلتها ممرضة، وطلبت منها أن تساعدها في حقائبها التي ما زالت في

سيارتها خارجا بعد أن تأكدوا من كل المعلومات، والدكتور المعالج ورقم الغرفة.

كانت غرفتها صغيرة تقع في الطابق الثاني، فيها كرسي وطاولة إلى جانب السرير، وخزانة ثياب وحمام صغير، ونافذة تطل على حديقة المشفى حيث نافورة ماء تتوسط المكان، وبعض العصافير تجفل بين الفينة والأخرى خوفا من السناجب التي كانت تطاردها على أغصان الشجر، على أحد الجدران كانت هناك لوحة للبحر معلقة والموج يداعب الرمل الدافئ، أو هكذا خُيل إليها، جهاز تلفاز في الزاوية الأخرى، وبعض الصور على ما تبقى من جدران هذه الغرفة التي حاول من صممها بجهد أن يبعد عنها شبح غرف المستشفيات، وكأنه أراد من تلك الألوان أن تبث الأمل والهدوء والسكينة في النفوس، أتت الممرضة تحمل حقيبة ثيابها، حنطية اللون عميقة العينين، في الثلاثين من عمرها تقريبا، لها ابتسامة ودودة بسيطة الملامح. سألتها عن اسمها:

- ميكانا، أجابتها الممرضة.

- ميكانا اسم جديد علي.

- نعم إنه اسم هندي، أنا هندية الأصل من المواطنين الأصليين لهذا البلد.

ابتسمت ريتا وقالت:

- هذا يعني أنك من أقارب بوكاهنتس؟

ضحكا معا، لقد ارتاحت لروح هذه الغريبة التي ستكون ممرضتها الخاصة طوال فترة إقامتها في المشفى.

- إقامتي الى متى؟

سألتها مداعبة.

- أتمنى أن تكون قصيرة، فأنا لا أحب التعلق بالمرضى خاصتي بل أريدهم أن يعودوا لبيوتهم وأهلهم. قالت ضاحكة رغبة ملحة فاجأتها، تريد أن تسمع فيروز وأغنية "شايف البحر شو كبير" وراحت تتمتم بكلمات الأغنية ،لا تعرف كيف طرأ هذا على ذهنها ربما لوحة البحر، تبا، تركت هاتفها في البيت، كيف ستستمع للموسيقا، ماذا دهاني؟ سألت نفسها هامسة، نعم تركته، لا تريد أي اتصال بالعالم الخارجي بأي شكل

من الأشكال، وتريد الانقطاع التام خاصة عن صفحات التواصل الاجتماعي، تلك الصفحات التي عرفتها بالشخص الذي ملأ حياتها حياة، والآن ها هي تصارع أن تبقى تلك الحياة على قيد الحياة، لا تريد أن تضعف وتبحث عنه، تريده أن يعيش حياته، وأن يحقق ذاته، وما يحلم به دون أن تكون عائقا في سبيله خاصة وهي بهذا الوضع من المرض، لا تعرف أين سينتهى بها المطاف به بعد العلاج.

قطع سيل أفكارها صوت الممرضة تطلب مساعدتها في ترتيب ملابسها في الخزانة.

- حقيبة صغيرة، لا أحمل الكثير من الأشياء.

- جيد جدا.

راحت تلامس الحقيبة بأنامل خفيفة، وكأنها تريد أن تطمئن على صحة شخص غال على قلبها، وليس على حقيبة جلدية قديمة، حقيبته التي تركها خلفه في الفندق،

شنطة سفر، أعمل ايه أنا بالوحدة وأنت مش هنا، ومنين أجيب صبر لسنة، أعمل ايه، وشنطة سفر، أوجعتها الذكرى والأغنية، رحيق جمالك يا جميلتي تسكر به روحي، راحة يديك أمني وبيتي، عذبة أنفاسك، آه وتنهيدة،

- "إن حياة البشر - يا جميلتي- مدٌّ وجزرٌ، تقترن بالخوف والأمل حينا وباليأس والقنوط أحيانا، يبقى السؤال: أين هما روحانا من هذا المد والجزر؟"

- ما أكرم روحك، تزيح عني مخاوفي، وتكتب قصيدة جديدة للأمل في حياتي،

هنا لم تستطع أن تُمسك ذاتها أكثر، أخفت وجهها بيديها، وراحت تبكي بكاء مرا، وراحت تتأمل الشنطة التي أمامها، وكأن كبرياءها تمنعها عن البكاء، لم ترد أن تكشف خفايا قلبها أمام هذه الغريبة، ما زالت تسمع صوته يحاكيها، وما زالت تشعر بذراعه تلف خصرها، وتشدها إليه، أسمى أمانيها كانت أن تراه، وتنهى الحياة

إلى جانبه، ولكن يبقى القدر يلعب لعبته القذرة من كر وفر.

شنطة سفر..

ما اسمك؟

قال...وغاب عن أنظاري

بين الحشود

يحمل على كتفه شنطة سفر

وفي يده باقة زهر

ما اسمك؟

وراحت عيناه تحدقان في سماء البحر

ترتفع الأمواج داخلها تارة

وتارة تخبو ويختفي الدمع

ما اسمك؟ قال ونادى الطير

فوق رأسي وأعطاه كسرة خبز

تطعم الطير الجائع

هو إلى موطنه عائد

قال...

أ كسرة خبز تكفيه

تضعها بأناملك في فيه

ليست كسرة خبز

بل قطعة من قلبي على هيئة زهرة

ما اسمك قال

لم أستطع الإجابة

بل انتحبت روحي

وعدت إلى تلك البحيرة.. إلى الغابة

ما اسمك أقول

لم السؤال

عيناك عيناها

ولك حر الشفاه

ولك باقة الزهر

ولك كسرة القلب وانفطار العين

كلها لك..

ما اسمك؟

كي أكتبك في مفكرتي

فأنا في حرب

من يدري أأعود أم أبقى منفيا خارج وطني

ما اسمك؟

لا تقولي ودعيني

أطلق عليك الاسم

وابتسم وحمل حقيبة السفر

وغادر مرفئي وأخذ معه قلبي

وما زلت أنتظر على ذلك المقعد

إنه يوم لم يكن لي

ولن يأتي..



هل كانت هذه الكلمات نبوءة لما تمر به الآن أو أنه حقا ما نكتبه على الورق سوف يتحقق كما قال لها يوما؟

فتحت الشنطة، وراحت الممرضة ترفع الثياب قطعة وراء الأخرى وتوضيبها بطريقة مرتبة، بضع قطع من الثياب وتيشرت رجالي وزجاجة عطر رجالية، وصورة شمسية قديمة تخفيها داخل الأشياء، شعرت ريتا بالاستغراب من محاولة أن تخفيه ميكانا، ولَم تنجح فقالت لها:

- هذه ممتلكاتي وكنزي الوحيد، وتابعت قائلة وهي تفتح كيس بلاستيك، ووصيتي يا بوكاهنتس لك إن مت، زجاجة العطر هذه مع القميص والصورة لا يستلمهم أحد أعني لا أحد، بل ادفنيهم أو أحرقيهم أو تصرفي بهم كما يحلو لك، ولكن لا يستلمهم أحد من أسرتي.

هزت ميكانا رأسها بالإيجاب، لأول مرة تشعر بمرارة الوظيفة التي كانت تقوم بها، وبالألم والعجز الذي

يفتك بالإنسان أمام حتمية المرض والموت.

- خلال العلاج لا يجوز استعمال أي نوع من أنواع العطور.

- هو ليس للاستعمال يا عزيزتي، لا تقلقي.

جلسا معا إلى الطاولة الصغيرة، وشرحت لها الممرضة كل ما يجب أن تعرفه عن المكان، وكيفية استعمال بعض المكينات وجرس الإنذار في الغرفة، ووقعت بعض الأوراق، وسألتها ميكانا هل لديها طلبات أخرى خاصة؟ أجابت: إنها لا تريد أن يزورها أحد، أو أن تستقبل أَي اتصال هاتفي ما عدا أولادها الذين وضعت أسماءهم على لائحة خاصة، حسنا أجابتها الممرضة وهي تهم بالذهاب، وإن تذكرت أَي شيء أو أردت أي شيء فهذا الجرس، اضغطي فآتي حالا، شكرتها ريتا بابتسامة وخرجت الممرضة، وأغلقت خلفها الباب.

جلست على حافة السرير، كان النهار قد مال نحو الغروب، تعبة، ومرهقة من قلة النوم ومن السفر الطويل، ومن أفكارها التي تتزاحم في رأسها، ومن ذكرياتها، ومن حيرتها "هل يا ترى كانت صائبة حين طلبت ألا يزورها

أحد؟ وماذا عن التيشرت والعطر؟ ابتسمت، وقالت: هذا سري، وهذا كنزي، وهذه حياتي، الآن لا دخل لأي إنسان بها، استبدلت ثيابها بعد أن أخذت حماما دافئا مما بعث في جسدها قليلا من الراحة، راحت تتجول في المكان، إنها ساعة العشاء، ورائحة الطعام تملأ المكان، جميل لا بأس بالمكان قالت حين سألتها ميكانا التي التقت بها في أحد الممرات.

عادت فيروز وأغانيها والموسيقا، لتطرق خيالها من جديد، حتى هي باتت مستغربة

لماذا؟ هل هو الحنين إلى طفولتها حيث كانت تعشق فيروز وأغاني فيروز وأنا وشادي، يجب أن أنام، خلعت ثيابها، وارتدت بيجاما باللون الأزرق والأبيض، وخلدت إلى النوم ما إن وضعت رأسها على المخدة. استيقظت صباحا على نقر خفيف على باب الغرفة، دخلت الممرضة تحمل بعض المعدات الطبية، وألقت عليها التحية بابتسامة تشع بالأمل والثقة.

- نريد أن نمتص قليلا من دمك النقي هذا الصباح، لإجراء بعض التحاليل النهائية قبل

بداية العلاج، لم تجب ريتا، ما زالت نائمة تقريبا، ولكن أفكارها أصبحت جلية الآن،

لقد أتت الساعة والعلاج والأدوية، طالما حاولت تجنب كل أنواع الأدوية طيلة حياتها، وها هي الآن تراها مجبرة، لا مفر من استخدام العلاج الكيماوي.

- بعد الإفطار ستأتي مصففة الشعر، لتصفف شعرك وقصة جديدة، قالت الممرضة بعد أن انتهت من سحب الدم:

بالطبع كل النساء يخضعن لهذه الإجراءات من قص الشعر، ويستعضن عن شعورهن بالشعر المستعار إن هن أردن، وخاصة في أوقات الزيارات، ولكن هي لا تريد زيارة أحد، ولا تأبه لشكلها، ولكن غصة اختنقت في حلقها، كم أراد أن يعبث بشعرها ويشم رائحته، كم أحبها يتطاير بطريقة فوضوية مثيرة، تنهدت سينبت من جديد، سينبت من أجلك، إنه اليوم الأول، ولكن

المرضات والأطباء لا يهدؤون، وعجلة الحياة تمضي مسرعة، وقد حددت لها الجلسة الكيماوية الأولى بعد الغد،

هذا سوف يفسح لها المجال كي تتعرف إلى المكان أكثر، وبذات الوقت كانت خائفة بعض الشيء، لأنها سمعت كثيرا عن صعوبة العلاج، وأرادت لو تستطيع أن تتفاداه، ولكن لا جدوى. أمضت اليوم التالي كما الأول ما بين الحديقة والإجراءات والأطباء، والتحاليل والأشعة حتى تأكد كل شيء، وأصبحت جاهزة في اليوم التالي لأول جلسة.

العلاجُ

مريضةٌ عشقاً

أسندني برضابِ الشفاهِ

داوني بالكوثرِ



مرّ ذلك الليل بطيء الخطى، وأمارات التعب والحيرة علت وجهها، لم تستطع أن تخفيها، ما أنا فاعلة؟ ولماذا على الإنسان أن يختبر كل هذا الشقاء من مرض وعلاج إن كان في نهاية المطاف سوف يموت؟ لماذا لا يموت بسلام بين ذراعي من ترتاح إليه نفسه؟ تمنت لو أن حياتها انتهت في تلك الليلة التي قابلته بها، ولم تطل بها الأيام لهذه الحالة من المرض والتعب والحرمان، هذه الأوجاع الجسدية تؤول بالإنسان إما إلى الكفر بالله، وإما بالاقتراب الكامل منه، وأين هي الآن منه، بل أين هو منها؟

شعرت بالأسى، فركت وجنتيها الذابلتين بيدها الباردة، وقالت: لا بأس، هي واحدة من المعارك الكثيرة التي على الإنسان أن يخوضها ما دام على وجه البسيطة. تمددت على السرير، حملتها الأفكار إلى الناحية الأخرى من العالم، لا بد أنه الفجر الآن، تُرى ماذا يفعل في هذه الساعة؟ هل يشرب قهوته، يدخن سجائره، أم يتناول إفطاره؟ هل يذكرها كما قال كلما أراد أن يتناول طعامه، وكأنها بابتسامتها ودلالها تقف أمامه تقاسمه الحضور، ويقاسمها الأحاديث والأشواق، إن المحافظة على رجاحة العقل في حالتي هذه هو الجنون والتحدّي الأكبر.

أما شمس فكان يعيش في عالم آخر منذ أن أعلمته بخبر انقطاعها عنه، انكب على المستحيل ليخرج من الحال التي منعته من تحقيق رغبته بأن يكون معها طول العمر.

- نعم أذكرك يا جميلتي، وهو يشرب قهوته، وكأنه يرد على تساؤلاتها، لعله سمعها تناجيه، من يدري؟ طالما آمن بسفر الأرواح تبحث عن الأرواح المحبة تحمل رسائل

العشق والحنين في كل زاوية من زوايا العالم الإلكتروني ذكرى، ولك بكل نفس من أنفاسي وطن، لولاك لكنت ما زلت أحيا على هامش الحياة بلا قيمة ولا هدف.

ما الحكمة من حياة ليس فيها من يشاطرك فكرك وروحك وفنجان قهوتك، تتقاسم معه الابتسامة، يفهم نظرات عينيك دون أن تنطق شفتاك، أغلقت جفنيها وراحت تناجيه، وتصغي إلى صوت أنفاسه ينعش أنفاسها.

- "نامي قريرة العين، الغد سيحمل معه واقعا أفضل، أرى بعينيك حزن هذا المساء"

- لست أدري متى يتركني الحزن، وتنصرف عني مخاوفي وحيرتي، وكأن الفرح ارتحل من عندي وراء سبعة بحور، وتركتني أضارب الأماني بريح الانفراد، يرمقني اليأس، فأتيه في حلكة الحياة، متى تنتهي مأساتي، ونلتقي إلى الأبد؟

نامت تلك الليلة نوما متقطعا، لعل أسباب القلق يعود إلى بدء العلاج غدا صباحا، أو للحنين الذي لفها

وشعورها بالحاجة إليه يهدئ روعها، ويبعث الفرح في صدرها، ما أصعب أن تقف النفس البشرية حائرة خائرة القوى أمام تلك النار المتآكلة التي تدعى المشاعر التي تجتاح وتقبض بأظافرها على عنق الإنسان ، فتسحق الروح من الداخل، وتكسر كيان الإنسان، وتذرو ما تبقى من طيبة وأمل في مهب الريح، زلزلة ضربت أفكارها، وراحت تقودها إلى الشك بالعدالة الإلهية تارة، وتارة أخرى ترضخ لنواميس الحياة ولسقوط الإنسان، أين الحكمة من كل ما يجرى وجرى معها؟ بزغ فجر ذلك اليوم ولم يزر الكرى جفنيها، وأحلامها بدت في واد سحيق، تتأمل وتأمل يوما ما أن تفهم عدالة اللّٰه على الأرض، فريتا حتى في ساعات المرض لم تنس أبدا أن هناك قوى سرمدية، وإلها يحميها، وهذا ما كانت تطمئن إليه، وتستمد قوتها منه.

ما بينَ الموتِ والحياةِ

قالوا من يستطيعُ أن يرى الفراغَ

ومن يفقهُ معنى الصدى

من يعرفُ طعمَ الموتِ

ومذاقَ انفصالِ الروحِ عن الجسدِ

من يستطيعُ أن يغفوَ على سريرٍ من جمرٍ

من يقولُ حياة دون غصةٍ

يرقصُ رقصاتِ الوجعِ

سياطٌ تلسعُ

وحلكةُ الليلِ باتتْ صومعة الأنينِ

جفتْ أنهارُ الأحداقِ

ويبستْ في الحلقِ الحروفُ

وجع.. وجع.. وجع

❖❖❖

بدأت رحلة العلاج، كانت الآلام متفاوتة في كلّ مرة تختلف عن التي تسبقها، وميكانا كانت المعين الوحيد لريتا في محنتها، بعد كل جلسة علاج كانت تقضي أوقاتا عصيبة من الألم، فقدت الأشياء رونقها، والزهور ذبلت قبل أوانها، والألوان كلها أصبحت رمادية، والأيام طويلة، وكابوس العلاج يجعلها ترتجف وتنتحب، خسرت شعرها، وتضاءل حجمها، كم مرةٍ سمعت وقع خطواته في غرفتها، وقرب سريرها، كانت تستيقظ من نوبات الألم وهي تناديه: شمس، أين أنت؟ خفف عني هذا الألم، خففه مني، لم أعد أقوى على الاحتمال، من المستحيل أن أصبر أكثر، ونار الاشتياق تلسع وتؤلم أكثر من كل الجلسات الكيماوية. لم تر ميكانا من قبل حالة مثل هذه الحالة كما أفضت ذات صباح لإحدى زميلاتها، لم تر روجها يبتسم وسط الألم، ولم تر عشقا يصارع الموت، لقد كانت الشاهدة الصامتة على أحلام وأماني ريتا، وكانت تتأوه متأثرة وتدمع عيناها، وتبكي مع ريتا تشاطرها الحزن، حتى باتت الصديقة والأخت لها، وبعد نوبة من نوبات الألم الحاد، والهذيان

باسم شمس، دفع بميكانا إلى التحدث مع ريتا عن شمس، لم تتردد ريتا بأن تخبرها بكل قصتها مع شمس كيف التقته، وكيف عرفتها، والحب الذي يكنه لها، والعشق الذي تحمله ما بين ضلوعها له.

- إن هذا العشق - يا عزيزتي- انبثق من نواة قلبينا، وحررنا من قبضة أعباء الشرائع البشرية، إن الإنسان سجين الأعراف والقوانين، وأنكر علينا أعظم حرية وهبها لنا الله يوم ولدنا، لقد تعدوا ودمروا الإنسان، وجعلوه سجين ورقة في بعض الأحيان، ورقة تحكم على اثنين بالعيش معا، ولا يربطهما ببعض سوى ورقة حكومية.

انقضت ستة شهور، وكان لشمس أن ينتقل من مكان إقامته إلى المدينة المجاورة حيث استلم شغله الجديد في شركة عالمية، لها الكثير من الفروع بكل أنحاء العالم، وبرغم كل مشاغله ومسؤوليته الجديدة، هذا لم يمنعه عن البحث والعودة إلى مواقع التواصل الاجتماعي، لعله يعرف أي شيء عن ريتا، ولكن دون جدوى، لم يفقد الأمل، ما زال يحمل في داخله شعلة لا تنطفئ من العشق

نحوها، وهذا ما كان يدفعه إلى التصميم الأكثر على عمله والاجتهاد، كي يحقق ما أراد أن يحققه من أجل العثور عليها، رغبة منه أن يدفع ثمن حريتهما معا.

كيف يمر صباحي دون أن أسمع حفيف العشق في صوتك

وأتنسم عبير الحياة في أنفاسك وأرشف نبيذ الحب من شفتيك،

وأراني في حدقة عينيك، كيف لصباحي أن يكون دون أن تكون معنى الوجود به؟

كيف أرحل عنك وأبتعد، وأنت تسكن كل أبعاد حياتي؟

كم من الرسائل كتبت وهي تحت وطأة الألم، ألم الشوق والحنين، سكبت أحشاءها على الورق، رسائل مشتعلة عشقا، وملتهبة عتبا، رسائل تخبره فيها عن تفاصيل يومها كما تعودت سابقا، وتتذكر وتبتسم حين عتب عليها عندما غيرت طلاء أظافرها دون أن يتشاركا باتخاذ قرار بشأن اللون المناسب، مع أنه يراها

جميلة بكل حالاتها، تبتسم وتضع قلم الرصاص جانبا بعد أن تعبت أناملها من الكتابة واهنة ضعيفة متمتمة " لم ولن يختبر أحد هذا العشق سوانا، ولن يتذوق أحد حلاوته"

أخذتها الذكرى على جناح الأيام، لتستعيد بعض أيّام قضتها برفقته، وتلك التي لم تقضيها معه كانت تكتبه فيها.

"لقد ذهبت إلى البحر الْيَوْمَ، ولكنه كان مختلفا، عاتبني وسألني عنك، لم أعرف بما أجيب، لقد اعتاد أن يرانا معا، لقد اعتاد أن اصطحابك لي في كل جولاتي، لم يكن يوما عاديا، دونك الأشياء تصبح رمادية الألوان، حتى الأمواج والزبد رمادية بغيابك كما أيامي دونك، أخبرني ما أقول للبحر عنك، هل افترقنا؟ هل شتتنا الغياب أو أن هذه هي حال العشاق أمثالنا، أقصى لقائهم عبر الشاشة ومن خلال الحرف، أيها الروح، أيها القلب، إيتها المُقل اهدأن.

أغمضت عينيها، لعلها تنام قليلا، فجسدها منهك وكيانها مرهق،

أشعر بالبرد يا حبيبي برغم أني متمددة تحت أشعة الشمس الحارقة، أرتجف من الداخل، وتصطك أسناني، أين جسدك يدثرني؟ وأين دفء شفاهك تقبض على أنفاسي؟ وأين ذراعاك تحوطان بي؟ آه عتبي عليك يا بحر، لقد لفظتني حورية من

وطني، وزرعتني في هذا العالم، لا لم ألفظك بل أنت من ثارت في أعماقي، وكانت قوة العشق التي تدفعك نحو الشاطئ أقوى من أمواجي العاتية، لم تكتف بأحضاني، وسرت وراء من طلبت روحك، ومن ناداك من جنس البشر، هل نسيت؟

لم أنس، وكيف لي أن أنسى من كان لي وطنا؟ نعم استجبت لنداء الحياة في صوته، وعرفت أنه وطني، ومن سينقذني من ذاتي؟ فبه وجدت ذاتي، لم تعرف كم مضى عليها من الوقت، وهي بهذه الحالة، تتمشى تارة في

غرفتها، وطورا آخر تجلس إلى طاولتها مقابل النافذة، تصغي لصوت الليل يتحدث إلى سريرتها بكلمات قلبت تاريخ حياتها، وجعلتها ترتمي في غيبوبة التذكار، كانت أفكارها مثل ساحة حرب، يتعارك بها الخير والشر، الموت والحياة، الفضيلة والقيم والمبادئ مع قوى الشر والرذيلة، لا تستطيع أن تقيس ما هو مفهوم البشر، فكانت كمن يناضل في وطن محتل من قبل جيش غريب يعيث فسادا، فتراءت لها روحها أم ثكلى تبكي وحيدها الذي قُتل على الجبهة، يدفع ثمن حرية الوطن، بينما حكام الوطن يجلسون على الكراسي، ويتجرعون الخمور في البارات ليلا، وأولادهم ذوو النفوس الجشعة التي لا تشبع، وفي النهار يقفون على منصات الخطابة، يبثون الروح الثورية في المواطنين الذين بدورهم تدب في صدورهم الروح الوطنية، ويهرعون إلى مكاتب التجنيد، ثم إلى الجبهات، فيعودون جثثا في صناديق خشبية.

تبا لأفكارها المتلبسة بالسواد، المتشحة بالظلمة، راحت تناجي إله الحب، لعلها تتخلص من هذا السواد

الذي يكتنفها، يا إله الحب الذي تبث الحياة في جوف الإنسان الميت، وتحيي رميم عظامه، يا من جبلتني في رحم أمي، وجعلت النبض في قلبي، أريتني كيف تكون الحياة، وكيف الموت يتلاقيان في جسد إنسان واحد، أنت تقول: إن الإنسان مُخير، لماذا تراني أركض في الصحراء وحدي؟ ما هي مشيئة العشق في حياتي؟ لماذا دفعت في طريقي إنسانا سقاني من الغرام جرعات الحياة، ثم أتى المرض والقدر وسقاني العلقم بديلا عنها؟ وفي جسدي البارد أشعر كأني أدفع ضريبة الإنسانية كلها، حين امتدت أصابع الألم الحديدية إلى جسدي تنهشه، وتسلب مني أحلامي الوردية، وتسرق مني شمس الحياة، ورمتني في جزيرة صخرية قاسية الملامح، وقد هربت الغبطة مني، أرني الطريق.

استيقظت صباحا مفزوعة وهي ترتعش وتصرخ: أريد النهوض، أريد النهوض، نعم إنه هذيان من كثرة التحديق بلوحة البحر المعلقة على الحائط راحت تهذي، لعلها تحت تأثير الأدوية المختلفة، ها قد استيقظت وهي

أشد لهفة، وأكثر شوقا إليه أكثر من أي يوم مضى، تنهدت: أين أنت يا شمس؟

غاضبة أرادت أن تصرخ، ولكن بُح وتر الصوت، تائهة ما بين صحو وغيبوبة، بين ألم وأمل، بين روح تناديها لتحيا، وروح تزحف بها نحو منحنى الذبول والأفول، ويبقى طيف شمس يلوح من بعيد، تشدها إليه توهج خيوط الحب في عينيه وباحات الفرح في جفنيه، فتصمم على الحياة، نعم كلاهما يستحقان الحياة، يستحقان اللقاء.

لن تدع الموت يضع كلمته الأخيرة لقصتها مع شمس.

صعقتها أفكارها المحيرة وكأنها تفحص في غيبوبة ألمها هذا ماهية الحياة عندما يَصل الإنسان مواجهة مع الموت، كل ما فيها يصب في نهج واحد، مغامرتها مع شمس كانت المغامرة الأكبر في حياتها، لقد عبث القدر بذلك اللقاء، وكتب لهما أن يفترقا، ولكن لا

تريد التأقلم على حياة الهزيمة، ولن تدع القدر ينتصر مرتين

صورة شمس متسمرة في جدار صدرها هناك بين ثنايا قلبها، مع كل صباح كانت تجاهد على التمارين التنفسية ولسان فكرها يقول: هو يسكن هنا، لذا سأعمل على تمارين التنفس كل يوم أكثر وأكثر كي تبقيه على قيد العشق، وتستمد منه الحياة، طيفه عالق في قلبي كما هو قابع في حنايا ذاكرتي وجسدي وروحي.

عندما هربت منه بعد أن تعافى، لم يكن بأي سوء نية بل كي تجنبه عناء القلق عليها من جراء مرضها، وهي كانت تعلم أن فرصتها من النجاة ضئيلة جدا، لا تريد أن يرى وجهها وهي تحتضر، هذا إن استطاع الوصول إليها، وبذات الوقت لم ترد أن يتعذب في البعد والحرمان منها، أرادت أن تجنبه الألم، ولم ترد أن يعاني من خوفه عليها وتضطرب روحه، مع أنها كانت على يقين أن ذلك الفراق لم يجنبه أي وجع بل غاص به إلى أعماق اليأس حتى الثمالة، يتجرع كأس غيابها مرة تلو

الأخرى، يركض وراء الوهم وهو يتصفح كل يوم وسائل التواصل الاجتماعي، لعله يعثر على أثر لها دون جدوى.

عادت في ذاكرتها إلى الليلة قبل أن يختفي عنها، ماذا لو ذهبت إليه في تلك الليلة، وتركته يجول بشفتيه العاشقة حول جسدها؟ ماذا لو تركت ذاتها تسكر من خمرة عشقه وتنتشي؟ ماذا لو تركته يحتل جسدها، ويقمع شروده وهي في إذعان واستسلام تام تحت دفء جسده؟ ماذا لو تركته يقبل أشد المواطن أنوثة فيها تاركا خلفه إعصارا من المشاعر؟ يمارسان معا رقصة الموت والحياة، ماذا لو تركت أناملها تسير ببطء على صدره وعلى كتفيه، تدور حول جسده في رحلة مكوكية، تجس نبض الحياة فيه، تؤلف أسماء جديدة لكل مسام ومنحنى في جسده؟ ماذا لو تركته يطفئ لهب أشواقها المتأججة بلسانه؟ ماذا لو مارست الشقاوة، وعبثت بأجزائه بثقة أنثى تعرف كيف تُنسي حبيبها الكون، ليكتملا معا ويكونا روحا واحدة في جسدين؟ هذا الغريب الحبيب من غيره يستحق استعمار جسدها

وكشف بواطنه، ألم تكن تقضي لياليها الطويلة تُحصي الأيام، تُهيئ فيها صورة هذا اللقاء، ألم

تمش إليه بخطى وطيدة وثابتة؟ لقد أيقظ بداخلها المارد الذي قضي آلاف السنين مسجونا في قمقمه، وفتك بها زلزال ضربها في أشد المواضع أنوثة فيها، مسجلا أعلى الدرجات على مقياس الأرصدة الحسية والمشاعرية، ماذا لو تركت له ذاتها في تلك الليلة، ليسجلا أكبر انتصار للعشق في تاريخ العشق معا؟ ماذا لو كانت قد أغلقت على عقلها بضع ساعات، وتعاملت مع ذاتها على أنها مختلة عقليا وتركت لعواطفها القيادة؟ لماذا يجب أن تكون عقلانية دائماً؟ ساذجة غبية في العشق هي، من يدري ما حدث معه، وما كانت ردة فعله على هشاشة موقفها منه، ورحيلها المفاجئ الاعتباطي دون سبب مقنع؟ ألا يجوز أن يكون قد أسقطها من حساباته الآن، ومن ذاكرته، وأصبحت لديه كالمواسم تظهر في السنة مرة، وتختفي في سبات شتوي طويل.

راحت تخاطب ذاتها، كم انتظرته روحك على مرافق الليل، وكم تعلق قلبك بنور خفيف كان ينبعث من جهاز الهاتف، هل ذهب كل هذا سدى وفِي مهب الريح؟ ما الذي حل بالشغف والوله والغرام؟ هل تلاشى كل شيء؟ هل التبس عليك الأمر ولَم تعرفي أن تميزي بين وجوده ووجودك؟ ربما أصابك خلل في الإحساس يوم عزمت على الرحيل، وأتقنت دور اللامبالاة. نسيت أو تناست أن تصغي لصوت ضمير العشق الذي كان وما زال بوصلة حياتها.

عندما يسدل الليل ستائره ولا نرى في الظلام من نعشق، وعندما نُغلق آذان روحنا عن نداء وعويل الحب في الغرفة المجاورة و في عيون من نعشق، عندما نهرب من صور طالما رسمنا تفاصيلها في مخيلتنا، وعندما نأخذ مشاعرنا ونطبق عليها بإحكام وإقفال وسلاسل تقاليد وضعها الإنسان، ولا نسمع أنين الحب ونضعها في نعش ونحكم الإغلاق، أقل ما يمكن أن يحدث عندها أننا تجردنا من إنسانيتنا، وماتت الحياة فينا. عندما نفقد الرغبة في الحياة وتتجمح حواسنا وتتضارب فينا الرؤى

تنشف في حناجرنا مخارج الحياة من أوعيتنا الدموية، ويصبح الممكن مستحيلا.

تعيد شريط الأحداث، لتدرك أن الذكرى أصبحت مُرّة والأحلام تحولت لكابوس، كم مرةٍ قال لها: وجود الإنسان على الارض جملة ذكريات، ولي معك أجملها!

هل ما زال يحتفظ بذات الفكرة عنها، وعن ذكرياته معها؟ لكنها تركته ولطمت باب

الذكريات خلفها وصدته بقوة حين طلب منها رقم الهاتف كي يطمئن عليها، تاركة خلفها علامات استفهام وأسئلة دون أجوبة وجرحا من يدري كيف تعامل معه بعد أن تركته بهذا الأسلوب البشع، كرهت ذاتها هذه اللحظة حتى الغثيان، هل كانت تستحق حبه؟ وهل كان يستحق منها هذه المعاملة؟

كل شيء صامت من حولها ما عدا ضجيج الآلات الموصولة إلى يدها النحيفة، فتحت عينيها ورأت طيف ميكانا إلى جانبها، وإذا بها تقول لها: حدثيني عن شمس، عندها أدركت ميكانا أن ريتا تمر بنوبة من الألم

النفسي والجسدي حادة جدا، فأمسكت يدها وراحت تُخبرها عن جمال الطبيعة في بلدها، وعن حضارة أجدادها الهنود الحمر، وعن طقوس الحب المقدس لديهم، وهي تتفقد نبضها بين الفينة والأخرى، لقد كانت جرعة العلاج الكيماوي الأخيرة قوية جدا، وكان الكل في المستشفى يرقبون حالة ريتا بقلق، ويتعاملون معها بحذر شديد مما أصاب جسدها من هزال وضعف في جهاز المناعة عندها، وكان قلقهم أكثر ربما تخسر حياتها إن لم تستطع مقاومة هذه الجرعة، ولكن إن تخطت هذا الأسبوع يكون عندها أنها تخطت مرحلة الخطر الأولي على الأقل.

لم تفارق ميكانا جانب سرير ريتا تلك الليلة حتى الصباح، وكانت تعاني من نوم متقطع تستيقظ على أنين ريتا ومناجاتها لشمس بكلمات لم تفهم منها إلا شمس،

إن فقد الإنسان العزيمة على الحياة يفقد حياته، وريتا كانت تتحلى بعزيمة أقوى مما بدا عليها، كانت تتدفق كنهر من حياة، لا ينضب ولا يجف، كل من رآها كان

يستغرب من التناقض الذي يتراءى في عينيها مسحة حزن مرفق ببريق من أمل تطرب له الروح وتشعر بالأمان.

أما شمس من الناحية الاخرى من العالم فكان يحل عليه شبح ثقيل الظل من الحيرة، يحاول طرده بانكبابه على دراسته بعد يوم عمل طويل، مُغيّب عن العالم، ولكن من يبالي، لعله ينسى الألم، هذا الألم الماكر الذي يكوي داخله من لحظة يفتح عينيه في الصباح إلى أن يغمضهما في المساء.

بالأمس كان مُتغربا داخل بلده وخارجها، مُتغربٌ عن كل تقاليد قومه وأعرافهم، كان لديه قانونه وحسه الذاتي لا ينطبق بأي شكل من الأشكال مع قوانين مجتمعه الذي نبذ كل رجل طموح ومختلف، مما أدى بشمس إلى القطيعة الجزئية في بادئ الأمر ونهائيا عندما تعرف إلى ريتا عن محيطه، فكان قد

استغنى بها عن كل البشر، حاصرته بروحها، وكانت الأم والأخت والشقيقة والصديقة والحبيبة، أما الْيَوْمَ فأصبح شمس يحمل اسم مُتغرب، لا مبال.

لقد دفعه رحيل ريتا المفاجئ إلى التمرد أكثر على وضعه، وسعى بكل قواه إلى تغيير واقعه، لم يحاول أن يبرر رحيلها حتى لم يغضب منها بل صَب جام غضبه على الظروف، وبعلاقتهما غير العادية وبعيدة كل شيء عن المألوف، وعلل رحيلها بأنه درس لا بد ان يتعلمه، قادته أفكاره دائماً أن يكون في طليعة التغير، لقد أيقظ حب ريتا في أعماقه مفهوما جديدا، وأخذت حياته منحى آخر، كان أشبه بآلة غيب مشاعره وعواطفه عن كل من يدور حوله، وكأنه أراد أن يبقيها عذراء كي لا تمتد إليها يد الفضوليين، وتشوه جمالية اللحظة والساعات القليلة التي أمضاها برفقتها، وعاد فيها إلى العالم، وأعادت معنى الوطن لذلك الغريب من قابل في عينيها ذاته بعد أن كان وحيدا منسيا في مقاهي ضبابية على أرصفة الدنيا.

مضى العام الأول على تواجدها في المشفى، أتت خاتمة التحاليل بالتعافي التام والشفاء، فرحت لهذا الخبر، أرادت أن تُعبر عن الجميل، فطلبت العمل في المركز ذاته، وكانت قد استأجرت شقة صغيرة قريبة من المشفى، تقضي فيها فترات راحتها، وفي المشفى كانت تجول بين غرف المرضى، تقرأ لهم ما أرادوا، وتستمع معهم للموسيقا محاولة بكل ما استطاعت التخفيف عنهم، تبكي لبكائهم، وتفرح لفرحهم.

شمس

أتحبّني؟

أنت مينائي في غربتي

فأنا إنسانٌ ظمآن

مطرود ومهزوم

من أجل عينيك مفقود

من سفر الحياة

من جنةِ ربّ الأكوان



أما شمس فكان يكبر في عمله يوما بعد يوم، ولَم يكف عن البحث عنها رغم أنها كانت قد أغلقت كل مواقع التواصل الاجتماعي خاصتها، فلم يجد إليها سبيلا.

مضت سنتان له في هذا العمل الجديد، وكانت الشركة متفرعة في أكثر من دولة، وشاء القدر أن يوفد شمس إلى كندا لدورة في مجال عمله لمدة أسبوعين،

يتلقى فيها شهادة رمزية، لم يصدق في بادئ الأمر أن اختيار الشركة كان قد وقع عليه هو، حتى أتى موعد السفر، الشركة دفعت كل مصاريف الاوتيل والتنقلات، وما عليه إلا أن يحضر الدورة لأربعة أيام في الأسبوع، وباقي الأيام يستطيع أن يقضيها كما يشاء، وهنا لمعت الفكرة من جديد في رأسه، وتمتم بينه وبين نفسه: هذا ما انتظرته طيلة أعوام مضت، والآن ها أنا على مشارف زيارة البلد التي تسكنه روحي، وأنا على يقين أن ذلك لم يأت عبثا ولا مصادفة، ولكن هناك يد خفية وراء مجريات هذه الأحداث، لا بد أن يراها، لا بد أن يجدها، ابتسم لأفكاره، وأنهى جمع حقيبة سفره واتجه إلى المطار، في طريقه للمطار كان يفكر كيف يجدها، فكندا ليست حيا صغيرا، بل هناك ملايين من البشر، تمتم: لن أفقد الأمل، ولن أتخلى عن هذه الفرصة، ومن أعطاني إياها فسيكمل معي وأجدها.

ما أغرب الحياة، وهذا الدهر الذي يقذف بالإنسان في شتى أرجاء الأرض والمصائر، سخرية الأقدار، حين استطاع أن يكون حيث تكون هي هل تكون؟

إن الخيبة أشد ألما من أي ألم، وقد صمم ألا يعود خائبا مهما كان الثمن، حطت الطائرة في المطار، ومنها إلى الفندق المعين من الشركة، أمامه يومان كي يجهز ويتعرف إلى المكان، ومن بعدها تبدأ الدورة، في هذه الأثناء لم يكف عن تصفح كل وسائل التواصل الاجتماعي يبحث عن اسمها بين الصفحات، لكن دون جدوى، حتى أنه بحث عنها في جوجل، لكن دون أي نتيجة، لم ينم أول ليلة له في كندا.

- أين تسيرين بي أيتها الهواجس، وهل عليّ أن أتبعك في هذه الممرات الشائكة التي تفضي إلى نهاية مظلمة؟

لا لن أتبعك بل سأفرش بالأمل طريقي وسأدوس على كل فخ من فخاخ اليأس، ولن أستسلم حتى أجدها، فأنا أشعر بأنفاسها، أشم رائحة ثيابها، أسمع ضحكتها، أرى ملامحها في كل مكان من جوانب حياتي. انقضى الليل وهو يبحر في أفكاره، لعله يجد خطة يتفحص كل الأسماء التي تأتي أمامه، لعله يصل إلى اسمها بطريقة ما، انقضت الليلة الأولى ولا جديد، كان

حانقا جدا، لقد خسر ليلة، ولكن أمامه المزيد من الليالي، ولا يجب أن تضيع منه كما الليلة هذه، لم يكن لديه ما يفعل ذلك اليوم سوى الجولان في المناطق التي يعتقد أنها زارتها يوما ريتا، فهذه هي المدينة التي تسكنها، كانت تحب البحر والمناطق التاريخية، إذن سيبدأ من هناك، صمم على زيارة أكبر عدد من الأماكن، لعله يلتقي بها.

مر اليوم بطوله متأملا الأبنية الشاهقة والأسواق وضفاف البحيرات في هذه المدينة الغريبة، سابح الفكر في مشارق الأرض ومغاربها وأين ريتا منها. عاد إلى الفندق خالي اليدين، كم أنت جبار أيها الزمن، تفرقنا ونحن في نفس البلد، أجمعنا ألا ترى شهقة الروح اللهفة، لقد فاضت خزائن القلب ألما، وسحقت روحي الوجيعة، هل من سبيل للقاء؟ فقد ملت روحي المسير في طريق اليأس الذي أطبق على أنفاسي، وقبض على كل بريق أمل. كانت نفسه ترتعش، ويرى كأنه يواجه عاصفة من الخيبات المستمرة، لم يرد أن يستسلم لغيوم القلق التي تلبدت في سماء فكره.

في الصباح التالي هيأ نفسه، وذهب لأول يوم من الدورة، هناك تقابل مع بعض موظفي الشركة المحليين، تحدث معهم بشتى أنواع الأحاديث في فترات الاستراحة، كم راودته الرغبة في أن يقف في الوسط ويسأل: هل رأيتم من عشقتها روحي؟ هل تعرفون من تسكن كياني، من استودعتها ذاتي، وسبحنا معا في بحر العشق، نرتشف منه أكسير الحياة؟ كان يُمسك نفسه بقوة، انتهى أول نهار بعد أن أعلنوا أن اللقاء في اليوم التالي سيكون في أحد الفنادق القريبة، انتهى اليوم ما بين لقاءات ودراسات وبرامج أنهكت عقله المشغول بشيء واحد فقط "ريتا".

سلمى

كانَ عاشقا

وكانَ غريبا وتائها

يحملُ قيثارةَ الليلِ على كتفه ...

وحروف القصيدة تجثو على شفتيه

كانَ عاشقا...يحملُ جرحا

وقلبا مبتورا ورمشا مسحورا

كانَ عاشقا...وحبيبته تنامُ

على صدرِه في الليالي الباردةِ



توجه إلى مكتب العلاقات العامة بعد أن جمع أوراقه، كي يأخذ برنامج الغد، خلف المكتب امرأة في الثلاثين من العمر، شرقية الملامح حنطية اللون، عميقة العينين، شعر شمس حين رآها بقوة غريبة تشده إليها، لم يعرف ما هي، وجفل في بادئ الأمر، وتلعثم حين سألته عن

سبب تواجده في مكتبها، كانت جميلة جدا، أجاب:- برنامج الغد قالوا إني أجده هنا.

تبين من لكنته أنه أجنبي عن البلد، وعربي بالتحديد.

- نعم أجابت، وقالت بالعربية: تبدو عربيا صح؟ وابتسمت وهي تسأله.

- أجل، قال وما زال يجاهد كي لا تفضحه المفاجأة.

- عرفتك من اللهجة، فكل العرب لهم لهجة خاصة.

- وأنت عربية؟ من أي بلد؟

- أنا من جذور عربية، أتيت إلى هذه البلد صغيرة مع والديّ، أنا من أصول لبنانية.

- جميل جدا.

- هذا الملف يحتوي على كل برنامج الغد والأسبوع المقبل.

- شكرا.

أراد أن يضيف الكثير من الكلام، ولكنها أجابته الى اللقاء، وراحت تجمع أوراقها، أما شمس فكأن عجلة الحياة توقفت أمامه، وشغلته تلك الصبية بجمال روحها وخفة ظلها، وجمالها القريب من القلب. يوم آخر، أوراق ومحاضرات ودراسات، وفكر شمس مشغول بفتاة العلاقات العامة، يريد أن يراها، ولكن أين وقد انتقل نشاط الدورة إلى فندق بعيد عن مبنى الشركة؟ انتهى نهار آخر، عاد بعدها إلى الفندق وقد شلت حركته، فارتمى على سريره، الحيرة تنهش قلبه، لا يعرف من أين يبدأ، ولا أين ينتهي، استيقظ فجرا، وراح يراجع كل ما جاء في جدول الدورة، ويبحث عن اسم الفتاة التي أعطته الجدول.

ابتسم وكأنه اكتشف دواء لداء مستعص، أربعة أيام الدورة لم يستطع مغادرة الفندق، بصعوبة كان يتناول الطعام، ليعود للتحضير ولحضور برنامج الدورة المكثف. انقضى أول أسبوع على وجوده في كندا، اليوم هو الجمعة لا دورات ولا دراسات، لكنه أراد أن يرى سلمى مجددا، لذا عزم على زيارة الشركة كي يراها، وهكذا

صار.

توجه إلى مكتبها، قرع خفيفا، لم يسمع أي إجابة، قرع ثانية، لا مجيب، دفع الباب بيده ودخل، لم تكن هناك، راح يجول ببصره في أنحاء المكتب، خزائن للملفات، حزم أوراق، ملفات على طاولة المكتب، راح يتنقل بحذر وينظر إلى الصور المعلقة على الجدران، كانت كلها مناظر طبيعية من بحر وجبل، مما ينم عن الشخص الذي يشغل المكتب، إنه عاشق للطبيعة والبحر، وعلى إحدى زوايا المكتب لفت نظره صورة داخل برواز لسلمى وامرأة أخرى، حملها بين يديه يفرك عينيه بيده الأخرى، لعل نظره يغشه ولم ير جيدا، إنها ريتا، كيف له أن يتوه عنها؟ لم يعرف أيبتسم أم يضحك أم يقفز فرحا؟ لقد قفز قلبه داخل صدره، وأحس بأن الأرض تدور به، زوبعة من المشاعر، لم يستطع السيطرة على أنفاسه، أحس كأنه يختنق، ما أغرب الدنيا، حالة ذهول مطبق سيطرت عليه.

- أهلا قالت له سلمى، ما الذي أتى بك، هل هناك شيء؟

ذهول تام يحمل بيده الصورة لم يعرف بم يجيب، تلعثم كطفل توبخه أمه، مد يده بالصورة وقال:

- لقد لفتت نظري هذه الصورة، أنا آسف على تطفلي.

- لا بأس، أجابته، أخذتها من يده وأضافت، هل هناك شيء محدد تريده بنبرة صوت أشبه إلى الهمس عندما رأت الذهول المسيطر على قسمات وجهه، فأجاب:

- نعم، سؤال شخصي لو سمحت إن أردت لا تجيبي، من معك في الصورة؟

سحابة من الألم علت وجه سلمى، وهي تنظر إلى الصورة بعيون تتلوى ألما، وتغرق فجأة بالدموع، لتجيب بصوت مخنوق بعبرات لم تستطع كبحها:

- هي أمي.

- آسف، هل أثرت ذكرى مؤلمة؟ قال وقلبه يقفز في داخله هل القدر يلاعبه الآن؟ هل يكون قد فقدها قبل أن يراها، هذا هو التفسير الوحيد للدموع في عيون الابنة، والألم الذي خطف لون الحياة من وجهها.

- لا، لا بأس ولكن قد مر فترة لم أرها، فأنا لا أقيم معها، وهي تبعد عني حوالي ثلاث ساعات سفر.

- حمدللّه تمتم، ثلاث ساعات ليست بمسافة بعيدة، وبلادكم هذه كلها مسافات، أراد أن يكمل، ولكن قاطعته قائلة:

- إذا كان هذا كل شيء أستميحك عذرا لدي عمل لأقوم به. أجابها:

- هناك سؤال آخر، هل هي بخير؟ أقصد أن الألم الذي يصاحب كلامك ينم على أن هناك أشياء أكثر من المسافة تفصلك عنها.

- هي الآن بخير، مرت بفترة عصيبة، لقد شخص الأطباء حالتها بالمتقدمة في مرض السرطان، وهي من النوع الذي لا يحب العلاجات، ولكن صمم الأطباء، وما كان منها إلا أن تخضع، لكنها ذهبت إلى مشفى بعيد عن المدينة، ولم ترد منا أن نزورها، كنا فقط نطمئن عليها بالهاتف، ومن خلال إحدى الممرضات، والألم الذي تراه والدمع ليس لأنها ليست بخير، ولكن لأن الله صنع

معجزة في حياتها وشفيت، لكنها لم تعد إلى المنزل، وفضلت البقاء في المشفى، حاليا هي تعمل هناك، كان يصغي إليها بلهفة محاولا أن يخفي اهتمامه الكبير بها، إلى أن قاطع كلامها تلفون، استأذنت منه، وتركت المكتب.

ترك المكتب وهرول إلى الفندق مسرعا، وفي رأسه شيء واحد، المشفى قالت إنه يبعد حوالي ثلاث ساعات، جوجل شكرا لك، هناك ثلاثة مستشفيات لمرضى الأمراض المستعصية تبعد عن مكان إقامته تقريبا ثلاث ساعات، وكل منها في اتجاه، لا بأس سوف يتصل ويسأل عنها.

أخذ الهاتف، وطلب رقم أول مستشفى يسأل عن اسمها، قالت الموظفة: آسفة لا أستطيع أن أفيد بأي معلومة عن المرضى أو الموظفين، وهكذا أجاب كل من موظفي المستشفيات الأخرى، فعقد العزم على أن يزور الأماكن الثلاثة بدءا من الآن.

طلب سيارة أجرة، واختار واحدا من الأماكن، وصل وكانت الشمس قاربت على المغيب، توجه إلى

الاستعلامات يسأل الموظف راجيا عن الاسم ريتا، كانت نزيلة، والآن ربما تعمل هنا، بعد تردد قصير قالت الموظفة: لا لم يمر الاسم من أمامي أبدا، ولكن إن كانت امرأة فهناك مشفى مخصص للنساء فقط ، وأعطاه الاسم، شكره بامتنان، فهذا يسهل عليه المهمة.

بدايةُ النهايةِ

الموسيقا تبدلت

وأنا ﰲ ثنايا الحلمِ غرقتُ

أغلقت نوافذ الليل

وأوصدتُ بوابة قلبي

وبالنزفِ كتبتُ نهايةَ قصةٍ لم تكنْ بعدُ قد بدأتْ



عاد إلى الفندق، فلقد تأخر الوقت، أراد النوم، ولكن هيهات والنار تأكله من الداخل، كيف يرتاح بعد ما سمعه من سلمى عن والدتها؟ يا للمصادفة الغريبة التي أتاحت له لقاء البنت، ليعرف مكان الأم، قضى ليلته ما بين نوم ويقظة، حتى خُيل إليه أنها معه ﰲ الغرفة، وأن ما يمر به الآن هو فقط كابوس مزعج ليس إلا، بحار من الأفكار وأمواج تضاربه والحنين وجمر الشوق المتقد يلهب روحه، أتى صباح السبت، طلب سيارة أجرة والترقب يلفه، ظمئ لرؤية وجهها، وصل إلى المكان، هادئ ،إنه من

الأماكن التي يعجب ريتا، دخل المستشفى، كانت أشبه بفندق صغير، توجه إلى مكتب الاستقبال، قابلته سيدة في العقد الخمسين من العمر، سألها عن ريتا، قائلا:

- كانت تخضع للعلاج هنا من سنتين تقريبا، والآن تعمل هنا.

نظرت إليه السيدة بحيرة لا تعرف ماذا تقول، ثم قالت:

- أنا آسفة، لا أستطيع أن أفيد بأي معلومة عن المرضى، ولا عن الموظفين ما لم يكن اسمك على اللوائح الخاصة، ما اسمك؟ أجابها باسمه الكامل.

- لا أرى اسمك في لائحة من اللوائح أجابته، آسفة.

- ولكن - سيدتي- أرجوك، إنها مسألة مهمة بالنسبة لي، أرجوك.

- أنا آسفة، لا أستطيع، هناك قانون يمنعني بإدلاء عن أية معلومات، وبينما هي تتحدث إليه مرت ميكانا بهما توقفت مستفسرة:

- هذا الشخص يبحث عن نزيلة في المستشفى، لكن لا أجد اسمه في اللوائح.

- عمن تبحث، وما اسمك؟

- عن ريتا، قبل أن يكمل صرخت الممرضة:

- شمس

- نعم شمس، قال مندهشا.

- أنا آسفة، أردفت قائلة وكأنها فضحت سرا إلهيا مكتوما قبل الأجيال، وسحبته من يده، وقالت له: اتبعني، تبعها وهو في حالة من الاندهاش، ثم سألها:

- كيف عرفت اسمي؟ من أنت؟

- أنا أعرف كل شيء عنك، أنا ميكانا، أعمل هنا ممرضة، وكنت الممرضة الخاصة لريتا، لا تتفاجأ، كنت أصلي لهذا اليوم الذي أراك فيه، كنت أعلم أنك لا بد أن تأتي، فصراخ تلك المسكينة، ومناجاة روحها لروحك كان لا بد أن تستجاب.

- ماذا تقولين؟ سألها مترددا وبحذر.

- كم سهرت الليالي تلك المسكينة تتوسد الأمل، تسمع صوتك يأتيها مع الريح، ترسمك بألوانها الرصاصية، تكتب الرسائل ولا ترسلها، تحترق آلاف المرات بألم البعد والعشق كفراشة تحترق حول شمعة، أين كنت، لماذا تأخرت؟ ألم تشتقها؟ أرادت أن تعنفه لتأخره.

- لم أستطع المجيء من قبل، وأنت تعلمين أن بعدي وانقطاعي عنها لم يكن خياري أنا بل خيارها هي، لم تخبرني بكل هذا بل تركتني في منتصف الطريق دون تفسير، أين هي؟

رن هاتف ميكانا، تمتمت هذه هي.

- نعم ريتا، لا لا أحتاجك اليوم هنا بل أريد أن آتي إليك في خلال عشر دقائق كي نخرج للغداء معا، كوني جاهزة، نعم متأكدة أنا لن أتأخر فقط اجهزي أنت،

أغلقت الهاتف وهو مشدوه، وقال بغضب:

- لماذا لم تدعيني أكلمها؟ لماذا لم تخبريها عني؟

- تمهل، هي تقيم على بعد عشر دقائق ستراها بعد عشر دقائق،

وهما في الطريق أخبرته ميكانا عن ريتا من بداية دخولها المشفى، مع حقيبة سفره وزجاجة عطره إلى صورته إلى الأيام التي كادت فيها تمضي من هذه الحياة، ولم تخف عنه الليالي التي قضتها الى جانب سريرها وهي تحتضن التيشرت الخاص به عندما يشتد بها الوجع، وكأنها تستمد الحياة منها، واسم واحد تهذي به هو شمس، بأصابع مرتعشة تحتضن صورتك، وزجاجة العطر أسمتها زجاجة الحياة، كانت بصيص الأمل الذي كان يدفع بها إلى عدم الاستسلام للموت، لم أر في حياتي امرأة

كان المرض في مراحله المتقدمة وشفيت إلا ريتا، ومن هنا بدأ اقتناعي أنك أنت

سبب إصرار ريتا على العيش، وأن الحياة لا بد أن تجمعكما معا، وكنت أنتظر.

قبض الصمت على شفتيه، لم يعلم ماذا يقول، ولا يدري كيف سيقابلها، لقد وصلنا، ترجلت من سيارتها، وقادته إلى شقة ريتا، نبضات قلبه أسرع من خطواته، أحس كأن الدم يصعد إلى رأسه، وكأنه يستيقظ من كابوس بعد ليلة طويلة تصارع فيها مع الوجع. قرعت ميكانا الباب، وأشارت له أن يختبئ، فتحت ريتا وكانت ترتدي فستانها الأزرق والأبيض المرصع بأوراق الشجر الصغيرة، أنيقة ممشوقة، وكان شعرها قد نبت من جديد، مجعد قليلا يتدلى على جبينها، لم تكن تهتم بقصه، بل أرادت أن ينمو بعفوية، وكأنها طفلة صغيرة شقية، الابتسامة على وجهه وهي تحيي ميكانا

- أهلا ميكانا، لقد تأخرت ثلاث دقائق، قالت وهي تعانقها وتقودها إلى الداخل، تركت ميكانا الباب مفتوح قصدا.

عادت ريتا لتغلقه وهي تقول:

- لماذا تركت الباب مفتوحا يا بوكهنتس؟

ضاحكة ممسكة الباب بيد ملتفة إلى الوراء لم تلحظ من يقف بالباب حتى شعرت أن هناك من يمسكه، التفتت، صرخت، فركت عينيها، وحدقت من جديد وهي تصرخ تبكي تضحك، تقفز، تجلس تركض، أنفاسها تسبق الدمع، شمس، شمس، وقفزت في أحضانه طفلة تريد الهروب من قسوة الغربة، ووحدتها، تريد اللجوء إلى وطن الأمان، تريد أن تقول للزمن: توقف هنا، لقد عادت روحي إليّ. انسحبت بوكهنتس من المشهد، وأغلقت الباب خلفها على حبيبين كلل العشق روحيهما، لقد نضجت عناقيد الخمرة، وحان القطاف، وها هما الآن معا تقطفان لذيذ الكوثر.

وأخيرا وجدت سفينة حياتها الميناء، ورست غير آبهة بالعواصف إن أتت تهدد برعودها وتغزو بأمواجها، عاد الربيع ليزهر في جوانب جسدها المرتعش، مشيا معا إلى الأريكة القريبة، وجلست في أحضانها، توسدت صدره تسمع نبضات قلبه، يخبرها أنها بخير الآن، وبين الفينة والأخرى يقبلها.

أحست بداخلها أن الحياة التي فصلتها يوما عنالحياة ها هي تعيد إليها الحياة من جديد. لقد اقتلع هذا اللقاء مرارة الأيام الغابرة، وجمع العشق الروح والجسد مرة أخرى حول موقد الحياة، ها أسراب الفرح تتطاير في أرجاء المكان، شقتها الصغيرة بدت كمرج مزدان بشتى أنواع الورود والرياحين، وأصوات البلابل تملأ المكان زقزقة، نهضت الطبيعة من سباتها تشاركهما الفرح. دلف المساء بأنواره الخفيفة، وبدت النجوم المتألقة في كبد السماء كالصبايا في حلبة رقص توسطها القمر بأنواره الفضية، لقد انطلقت روحها الآن محلقة في عالم جديد، حيث النهاية تكون البداية، اتحاد جسدين وتماهي روحين أفقد كل الحواجز التي فصلتهما عن بعض فيما مضى، لقد بدأت رحلة جديدة من الوجود بالنسبة لها، وجودهما معا، تسمو المعاني عن أن تحدد طبيعة وماهية هذه العلاقة، لقد حاربهما القدر من قبل، ولكن قوة العشق جمعتهما، تراها الآن تنظر في مرأة انعكست روحها فيها، وأصبحت بين يديه رمزا من رموز الجمال والإبداع كالموسيقا، انعتاق الروح من

عبودية الجسد، وانطلاقة الأمل من براعم اليأس والفشل، وحقيقة الأماني والأحلام في عالم مليء بالتحديات، استقلالية ونجاح، أفكارها كلها تصب في مصب واحد، لا أرغب في التفكير الآن، وسأكتفي بتخليد هذه اللحظة في ذاكرة الزمن، فما حياة الإنسان سوى مجموعة ذكريات، يخلد إليها يوم التحدي، في صمت. هناك سيل من الأسئلة لا تنتهي تجول في خاطره، وهناك حب حتى الجنون ينتظرهما معا، وهناك رغبة لا توصف في امتلاك أحدهما للآخر بلا منازع، وهناك ليلة زاخرة بكل أنواع اللذة تنتظرهما، وبما أن غريزة الموت والحياة متلازمتان، فلنترك هذا اللقاء يخبرنا عن ماهية الموت عشقا على صدر الحبيب، والحياة في قبلة شفتيه.

هنا نهاية الأنين ونيران بالصدر تلتهب، من أُخبر في غيابك، بين ألسنة اللهب كنت أرى وجهك تبتسم، تشرق وتشير إلى قلبك المحترق، وتبتسم قائلا لي، تعال ولندع سياط الشوق تلسعنا، نحترق معا ولينثروا رمادنا على وجه البحر، يحملنا إلى موطننا، أصغي بشغف،

فتنتشي روحي، وتنتفض من تحت الرماد، وكالبركان الثائر حمما أتطاير من الفوهة، هكذا عشقك أيها الغريب من الموت خطفتني.

عندما لازم الصمت كياني كنت ذاك الصوت الذي لامس روحي في ظلمة الليل، وحين الحزن يباغتني، كان وجهك وابتسامة ثغرك تعيد بهجة الحياة ومعانيها لي، كفراشة كنت أحوم حول نار ونور عشقك، لأتدفأ في الليالي الباردة، يا رفيق روحي، في كلمات نزفتك وكتبتك لون الحياة، لولا العشق في عينيك، سكون الكائنة، وأنين الحنين لم ينبثق وجودي يوما، المطر، الشجر، البحر، والحياة في خريفي، أتعلم معنى وجودي بين أحضانك، عاشق تثير حواسي، فأجدني أنثى مُثخنة بجراح الهوى، أيها الغريب، يا من تشق حياتي كبرق، فيستجيب جسدي بارتعاد النشوة، موطني عيناك، وصدرك معبدي، وشذى صوتك، نورك هيكلي، تدوير شفتيك، كلك جميل يا حبيبي، وكلي لك الآن.

النهاية